سورة الفرقان
مكية، سبع وسبعون آية، وثمانمائة واثنتان وسبعون كلمة، وثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثة وستون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ} أي تعالى الله الذي نزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في ذاته وصفاته وأفعاله، فتعالت ذاته عن جواز التغيُّر والفناء. وعن مشابهة شيء من الممكنات وتعالت صفاته عن حدوث، وتعالت أفعاله عن عبث.

ومن جملة أفعاله تنزيل القرآن المنطوي على جميع الخيرات الدينية والدنيوية والإتيان بعنوان العبد إعلام بكون سيدنا محمد في أقصى مراتب العبودية، {لِيَكُونَ} أي ذلك العبد أو الذي نزل الفرقان {لِلْعَٰلَمِينَ} أي المكلفين من الثقلين {نَذِيراً} أي مخوفاً من عذاب الله بالقرآن { ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} بدل من الموصول الأول أو خبر مبتدأ محذوف {وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً} عطف على الصلة. وهذا رد على النصارى واليهود وبعض مشركي العرب {ٱلأَسْوَاقِ لَوْلاۤ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ} أي في ملك السمٰوات والأرض فهو المنفرد بالإلٰهية. وهذا معطوف على الصلة أيضا وهو رد على الثنوية وعباد الأصنام والنجوم، وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً} أي أحدث كل موجود إحداثا جاريا على طريق التقدير بحسب ما اقتضته إرادته وهيَّأه لما أراد به مما يصلح له مثاله أنه تعالى خلق الإنسان على هذا الشكل المقدَّر المستوي الذي تراه فيقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في باب الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة، فقدره لأمر ما، ومصلحة ما موافقا لما قدر غير متأخر عنه. وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة، فقدره لأمر ما، ومصلحة ما موافقا لما قدر غير متأخر عنه. {وَٱتَّخَذُواْ} أي المنذورن من كفار مكة كأبي جهل وأصحابه {مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئاً} أي جعلوا لأنفسهم متجاوزين الله غيره آلهة لا يقدرون على خلق شيء أصلاً، {وَهُمْ يُخْلَقُونَ} كسائر المخلوقات {وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً} أي لا يقدرون لأنفسهم على دفع ضرر ما وعلى جلب نفع ما فمن لا ينفع نفسه لا ينفع غيره، {وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَوٰةً وَلاَ

نُشُوراً} أي ولا يقدرون على اماتة الأحياء واحياء المـوتى، وبعثهـم، فالا له يجب أن يكون قادرا على جميع ذلك.

{وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوۤاْ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ} أي قال النضر بن الحرث: ما القرآن الا كـذب مصـروف عن وجهه اختلقه محمد من تلقاء نفسه، وأعانه علـى اختلاقـه غيـر قومه، وهم اليهود جبر ويسار أبو فكيهة الرومى.

قال الكلبي ومقاتل نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث فهو الذي قال هذا القول وأعانه عليه عداس مولى حـو يطـب بـن عبـد العزى، ويسار مولى العلاء عامر بن الحضرمي، وجبر مولى عـامر، وهؤلاء كانوا مـن أهـل الكتـاب، وكـانوا يقـرأون التـوراة، ويحـدثون أحاديث منها في مكـة، فلمـا أسـلموا كـان النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم يتعهدهم، فزعـم النضـر أنهـم يلقـون اليـه صـلى اللـه عليـه وسلم أخبار الأمم الماضية، وهو صلى الله عليـه وسـلم يعـبر عنهـا بعبارات من عنده، فهذا معنى اعانتهم له فمن أجل ذلك قال النضر ما قال، فرد الله تعالى ذلك بقوله تعـالى {فَقَـدْ جَـآءُوا} أي قـائلو هذه المقالة {ظُلْماً} عظيما حيث جعلوا الحق البحت إفكا مفـترى من قبل البشر {وَزُوراً} أي كذبا كبيراً حيث نسبوا إليه صـلى اللـه عليـه وسـلم مـا هـو بريـء منـه. {وَقَـالُوۤاْ} أي النضـر وأصـحابه: {أَسَٰطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا} أي هذا القرآن ما سطره المتقدمون من الخرافـات انتسـخها محمـد بـن عـداس ويسـار وجـبر، أي أمرهـم بكتابتها له وقراءتها عليه لأنه أمي {فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِـيلاً} أي فتلك الاساطير تقرأ على محمد بعـد طلبـه منهـم كتابتهـا غـدوة وعشياً ليحفظها من أفواههم من ذلك المكتب لكـونه أميـا لا يقـدر على أن يتلقاها منه بالقراءة. وهذا علـى قـول جمهـور المفسـرين فإن قوله: {تُمْلَىٰ} ألخ من كلام القوم الكافرين.

وقال الضحاك: معنى قولهم ذلك: وما يملى على محمد بكرة يقرأه عليكم عشية، وما يملى عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة خلافاً للحسن حيث قال: إن ذلك من محض كلام الله تعالى ذكـره جوابـاً عن قولهم كأنه تعالى قال: إن هذه الآيـات تلقـى عليـه صـلى اللـه عليه وسلم بالوحي منـي حـالاً بعـد حـال، فكيـف ينسـب إلـى أنـه أساطير الأولين، {قُلْ} لهم رداً عليهم: {أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي ليـس ذلـك القـرآن ممـا يفتعـل باعانـة قوم وكتابتهم من الأحَاديق الملفقة، بل هو أمر سماوي أنزلـه اللـه الذي لا يعزب عن علمه شيء من الأشـياء فيعلـم مـا تسـرونه مـن كيدكم لرسوله مع علمكـم بـأن مـا يقـوله حـق، ومـا تقولـونه زور، ويعلم براءة رسوله مما تتهمـونه بـه وهـو مجـازيكم علـى مـا علـم

منكم وما علم منه. {إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً} أي إنما أنـزل القـرآن لأجل الإنذار فوجب أن يكون غير مستعجل في العقوبة. وهذا تنـبيه على أنهم استحقوا بمكايدتهم هـذه أن يصـب اللـه عليهـم العـذاب صباً، ولكن صرف ذلك عنهم كونه غفوراً رحيماً فيمهلهم ولا يعجـل عليهم العذاب. {وَقَالُواْ} أي أبو جهل وأصحابه، والنضر وأصـحابه، وأمية ابن خلف وأصحابه: {مَا لِهَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِـى فِى ٱلأَسْوَاقِ} أي سبب حصل لهذا الذي يدَّعي الرسالة حال كـونه يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي فـي الأسـواق لابتغـاء الأرزاق كمـا نفعله، فمن أين له الفضل علينا وهو مثلنا في هـذه الأمـور؟ {لَـوْلاۤ أُنزِلَ إِلَيْهِ} أي هلا ينزل علـى صـورته {مَلَـكٌ} لا يأكـل ولا يشـرب {فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً} أي فيكون معيناً له في الإنذار يشهد لـه ويـرد من خالفه {أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ} من السماء، فينفقه، فلا يحتـاج إلـى التردد لطلب المعاش {أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا}.

وقرأ الأعمش وقتادة «يكـون» بالياء التحتيـة، وقـرأ حمـزة والكسائي «نأكل» بالنون. {وَقَالَ ٱلظَّالِمُـونَ} أي المشـركون أبـو جهل، والنضر، وأميـة وأصـحابهم للمـؤمنين: {إِن تَتَّبِعُـونَ} أي مـا تتبعون أيها المؤمنون {إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً} أي مختل النظر والعقل {ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلأَمْثَـلَ} أي انظـر يـا أفضـل الخلـق كيـف اشتغل القوم بضرب هذه التي لا فائدة فيهـا مـن الأقـوال العجيبـة الخارجة عن العقول، {فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْـتَطِيعُونَ سَـبِيلاً} أي فـأرادوا القدح في نبوتك، فضلوا عن طريق المحاجة، فلم يجدوا سبيلاً إلى القدح فـي نبوتـك وفـي معجزاتـك، وضـلوا عـن الحـق فلا يجـدون طريقاً موصلاً إليه.

{تَبَارَكَ ٱلَّذِىۤ إِن شَآءَ} أي تكاثر خير من الذي إن شاء {جَعَلَ لَكَ} في الدنيا شيئاً {خَيْراً} لك {مِّن ذٰلِكَ} الذي قـالوه {جَنَّـٰتٍ} أي بساتين كثيرة {تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّـكَ قُصُـوراً} أي بيوتاً مشيدة رفيعة في الدنيا، فقوله تعالى: {جَنَّـٰتُ} بدل من خير.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر برفع «يجعل» على أنه معطوف على جواب الشرط، لأن الشرط إذا كـان ماضـياً جاز في جوابه الجزم والرفع، أو مستأنف بوعد ما يكـون لـه صـلى الله عليه وسلم في الآخرة. وقرأ الباقون بإدغام لام «يجعل» فـي لام «لك» إما بتقـدير الجـزم علـى أنـه معطـوف علـى محلجـواب الشرط وهو جزم، أو بتقدير الرفع، وإنما سكن اللام لأجل الإدغـام، فعلى الرفع حسن الوقف على «الأنهار»، فـإن المعنـى: وسـيجعل لـك قصـوراً فـي الآخـرة وعلـى الجـزم لا يحسـن الوقـف علـى «الأنهار» فإن المعنى: إن شاء يجعل لك قصوراً في الدنيا.

روي عن طاوس عن ابن عباس قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام عنده قال جبريل عليه السلام: هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه في زيارتك فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إن الله يخيرك بين أن يعطيك مفاتيح كل شيء لم يعطها أحداً قبلك ولا يعطيها أحداً بعدك من غير أن ينقصك مما ادخر لك شيئاً، وبين أن يجمعها لك في الآخرة فقال صلى الله عليه وسلم: «بل يجمعها جميعاً في الآخرة» فنزل قوله تعالى: {تَبَارَكَ ٱلَّذِى إِن شَاء} الآية. {بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ}. وهذا جواب ثالث كأنه تعالى قال: ليس ما تعلقوا به شبهة علمية في نفس المسألة لأنهم لا يعتقدون فيك كذباً بل الذي حملهم على تكذيبك تكذيبهم بوجود وقت الجزاء استثقالاً للاستعداد له، فإنهم لا يتحملون مشقة النظر، فلهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل {وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيراً} أي جعلنا ناراً عظيمة شديدة الاشتعال معدة لمن كذب بوجود القيامة، {إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ} أي من مسيرة عام كما قاله الكلبي والسدي {سَمِعُواْ لَهَا} أي النار {تَغَيُّظاً} أي صوت غليانها، {وَزَفِيراً} أي صوتاً شديداً كصوت الحمار {وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا} أي النار {مَكَاناً ضَيِّقاً}.

وقرأه ابن كثير بسكون الياء {مُّقَرَّنِينَ} في السلاسل قرنت أيديهم إلى أعناقهم {دَعَوْاْ هُنَالِكَ} أي في ذلك المكان {ثُبُوراً} بأن يقولوا: يا ثبور هذا زمانك ويتمنوا موتاً.

وقال الكلبي: الأسفلون يرفعهم اللهيب والأعلون يخفضهم الداخلون، فيزدحمون في تلك الأبواب الضيقة. وقال ابن عمر: إن جهنم لتضيق على الكافر كضيق الزج على الرمح. وتقول لهم: خزنة جهنم {لاَّ تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُوراً وٰحِداً} أي لا تقتصروا على دعاء ثبور واحد {وَ ٱدْعُواْ ثُبُوراً كَثِيراً} فإن ما أنتم فيه من العذاب مستوجب لتكرير الدعاء في كل آن لغاية شدته وطول مدته {قُلْ} لهم تحسيراً على ما فاتهم: {أَذٰلِكَ} السعير التي هيئت لمن كذب بوجود القيامة {خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ} التي لا ينقطع نعيمها { ٱلَّتِى وَعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ} أي التي وعدها من يجتنبون الكفر. وهذا يحسن في مقام التقريع كما إذا أعطى السيد عبده مالاً فأبى واستكبر، فضربه ضرباً وجيعاً وقال له على سبيل التوبيخ، هذا أحب إليك أم ذاك {كَانَتْ} أي تلك الجنة {لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيراً} أي مسكناً فما وعدالله به فهو كائن لا بد من وقوعه، فكأنه قد كان، ولأنه كان مكتوباً في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم الله بأزمان متطاولة: أن الجنة جزاؤهم ومستقرهم.

{لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ} فكل فريق منهم مشتغل بما فيه من اللذات فلا يلتفتون إلى ما فوق ذلك من المراتب العالية، وفي هـذا تنـبيه علـى أن حصـول المـرادات بأسـرها لا يكـون إلا فـي الجنـة. {خَٰلِدِينَ} حال من الهاء في «لهم» فإن من شرط نعيـم الجنـة أن يكون دائماً إذ لو انقطع لكان مخلوطاً بنوع من الغم كنعيـم الـدنيا، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «من طلب مـا لـم يخلـق أتعـب نفسه ولم يرزق» فقيل: وما هو يـا رسـول اللـه؟ فقـال: «سـرور يوم» {كَانَ} أي ما يشاؤونه {عَلَىٰ رَبِّكَ} يا أفضل الخلـق {وَعْـداً مَّسْئُولاً} أي موعوداً مطلوباً لكونه مما يتنافس فيـه المتنافسـون، فإن المكلفيـن سـألوه بلسـان الحـال، لأنهـم لمـا تحملـوا المشـقة الشديدة في طاعته تعالى كان ذلك قائماً مقـام السـؤال ومـا فـي «على» من معنى الوجوب لاستحالة الخلف في وعده تعالى، فـإن تعلق إرادته تعالى بـالوعود متقـدم علـى الوعـد المـوجب للإنجـاز، {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ}. وقرأ ابن كثير وحفص بالياء. والبـاقون بـالنون {وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ} أي من غيره، أي ويوم القيامـة يحشـر الله العابدين لغير الله ومعبوديهم {فَيَقُولُ}. قرأ ابن عامر بالنون. والباقون بالياء كأن يخلق في الأصنام الحياة فينطقها أو كأن جوابها بلسان الحال كما ذكره بعضـهم فـي تسـبيح المـوات وفـي شـهادة الأيدي والأرجل أي يقول الله للمعبـودين تقريعـاً للعابـدين {أَءَنتُمْ أَضْـلَلْتُمْ عِبَـادِى هَـؤُلاَءِ} بـأن دعوتمـوهم لعبـادتكم {أَمْ هُـمْ ضَـلُّوا ٱلسَّـبِيلَ} أي أم هـم ضـلوا عـن السـبيل بأنفسـهم بـتركهم النظـر الصحيح وإعراضهم عن المرشد وعبدوكم بهوى أنفسهم. {قَـالُواْ} أي المعبودين متبرئين عن العابـدين: {سُـبْحَٰنَكَ} أي قـالوه تعجبـاً مما قيل لهم أو إشعاراً بأنهم منزّهون الله تعـالى عمـا لا يليـق بـه، فكيف يليق بحالهم أن يضـلوا عبـاده أو قصـداً لتنزيههـ تعـالى عـن الأنداد {مَا كَانَ يَنبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ} فنتخذ متعد لواحد، و «مـن أوليـاء» مفعـول، و «مـن» زائـدة، و «مـن دونـك» حال، لأن نعت النكرة إذا تقدم عليهـا صـار حـالاً. وعـن أبـي جعفـر وابن عامر أنهما قرءا «تتخذ» بالبناء للمفعول فهو متعد لمفعولين، والمفعول الأول نائب الفاعل، و «من أولياء» مفعول ثانٍ، و «من» للتبعيض وتنكير «أولياء» من حيث إنهم أوليـاء مخصوصـون، وهـم الجن والأصنام. ومعنى الآية: لا يستحق لنا أن يتخـذ بعضـنا أوليـاء. والحاصل إن كان معبودهم ملائكة قالت: نحـن عبيـدك فلا يسـتقيم لعبيدك أن يتخذوا من غيرك أحباء يعبدونهم فإذا كنا نعتقد أن غيرك لا يجوز أن يكون معبوداً، فكيف نـدعو غيرنـا إلـى عبادتنـا وإن كـان أصناماً قالت: لا يصح منا أن نكون مـن العابـدين فكيـف يمكننـا أن

ندعي أننا من المعبودين فما أضللناهم. {وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ} أي ولكن يا إلهنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم من النعم فجعلوا ذلك ذريعة إلى ضلالهم {حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ} أي تركوا الإيمان بالقرآن {وَكَانُواْ قَوْماً بُوراً} أي وصاروا قوماً هالكين فاسدة القلوب. {فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ} أي فقال الله تعالى عند ذلك: فقد كذبكم أيها الكفرة معبودكم في قولكم: إنهم آلهة. فالباء بمعنى في أوهي صلة للتكذيب على أن الجار والمجرور بدل اشتمال من الضمير المنصوب، أي فقد كذبوا قولكم: إنهم آلهة. وانظر كيف أظهر الله صدق الأصنام وكذب الكفار، وتقولون بالتاء الفوقانية باتفاق العشرة.

وقرىء شاذة بالياء، أي كذبوكم بقولهم: {سُبْحَٰنَكَ} الآية. {فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً}. وقرأ حفص بالتاء على الخطاب، أي فما تستطيعون أيها الكفار صرف الأصنام والملائكة عن شهادتهم عليكم ولا نصر أنفسكم في إضافة الصدق إلى أنفسكم ولا تستطيعون دفع العذاب عنكم ولا منعه عنكم بأنفسكم ولا بغيركم. وقرأ الباقون بالياء على الغيبة أي فما تستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب ويحتالوا لكم، ولا أن ينصروكم بوجه من الوجوه. {وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً} أي ومن يكفر منكم يا معشر المؤمنين، أو ومن يستمر منكم يا معشر الكفار على ما أنتم عليه من الكفر والعناد نذقه عذاباً كبيراً في الدنيا والآخرة والعامة. قرأوا «نذقه» بنون العظمة. وقرىء بالياء والضمير عائد لله تعالى أو للظلم المفهوم من الفعل على سبيل المجاز بإسناد إذاقة العذاب إلى السبب {وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلاَّسْوَاقِ} و «إن» مكسورة باتفاق العشرة و «اللام» لام الابتداء زيدت في الخبر، والجملة الواقعة بعد إلا حالية، أي وما أرسلنا قبلك يا أشرف الخلق أحداً من المرسلين إلا وحالهم آكلون وماشون فأنت مثلهم في ذلك. وقرىء «يمشون» على البناء للمفعول، أي يمشيهم حوائجهم {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً} أي وجعلنا كل أمة كافرة فتنة لرسولها المبعوث إليها كأن يقول بعض الكفار لبعض الأنبياء آتنا معجزة كمعجزة بني فلان {أَتَصْبِرُونَ} يا معشر الأنبياء على ما تسمعون من أقاويلهم الخارجة من حدود الإنصاف، فالمعنى جرت سنتنا على ابتلاء المرسلين بأممهم بإيذائهم لهم لنعلم صبرهم. {وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً} بأعمال كلهم وجزائها. وهذا وعد كريم للرسول صلى الله عليه وسلم بالأجر الجزيل لصبره الجميل.

{وَقَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا} أي لا يؤملون وعدنا على الطاعة من الثواب فلا يخافون العقاب لكفرهم بالبعث. وهذه الجملة معطوفة على قوله تعالى: {وَقَالُواْ مَّالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولَ} إلخ. {لِقَآءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا} أي هلا أنزلوا علينا بطريق الرسالة {ٱلْمَلَٰئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ} فيخبرنا بصدق محمد في رسالته. {رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِى} أي أنهم أضمروا الاستكبار في قلوبهم واعتقدوه. {أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوّاً} أي تجاوزوا الحد في الظلم حتى اجترأوا على هذا القول العظيم الشنيع. {يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰئِكَةَ} منصوب بعامل دل عليه «لا بشرى» أي يبغون البشرى يوم يرون ملائكة العذاب قائلين: {لاَ بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ} أي الكافرين في كل الأوقات فإنهم يشافهون في أول الأمر بما يدل على نهاية اليأس والخيبة، فذلك هو النهاية في الإيلام {وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً} أي يقول الكافرون الذين طلبوا نزول الملائكة إذا رأوا الملائكة وفزعوا منهم عند الموت: ويوم القيامة حجراً محجوراً؛ وهي كلمة كانوا يقولونها عند لقاء العدو ونزول شدة، ويضعونها موضع الاستعاذة. والمعنى: نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك منعاً. وقيل: يقول الحفظة للكفار، إذا خرجوا من قبورهم: حجراً محجوراً. ومعناه جعل الله الغفران والجنة والبشرى حراماً عليكم.

وقال الكلبي: إن الملائكة على باب الجنة يبشرون المؤمنين بالجنة ويقولون للمشركين: حجراً محجوراً.

وقرأ الضحاك والحسن وأبو رجاء على ضمها. وقرىء بفتحها. {وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ} أي وقصدنا إلى أعمالهم التي ظنوا أنها تقربهم إلى الله تعالى {فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً} أي أبطلناه وجعلناه مثل الهباء المنثور الذي لا يمكن القبض عليه في عدم إمكان الانتفاع به بالكلية والهباء شبه غبار يرى في شعاع الشمس يطلع من الكوة {أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ} هم المؤمنون {يَوْمَئِذٍ} أي يوم القيامة {خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً} أي موضع استراحة نصف النهار في الحر وقد أشارت الآية إلى أن كلاً من أهل الجنة وأهل النار قد استقروا في وقت القيلولة.

وإن كان استقرار المؤمنين في راحة، واستقرار الكافرين في عذاب فيكون الحساب لجميع الخلائق قد انقضى في هذا الوقت، لأن القائلة تكون في نصف النهار، والحساب يكون من أوله.

والمراد من ذلك: بيان أن ذلك الموضع أطيب المواضع، كما أن موضع القيلولة يكون كذلك، وإشارة إلى أنه مزين بفنون الزخارف {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰئِكَةُ تَنزِيلاً} أي يوم القيامة تتفتح كل سماء بسبب طلوع الغمام منها، وهو سحاب أبيض فوق

السمٰوات السبع، ثخنه كثخن السمٰوات السبع، وثقله كذلك، فينزل على السماء السابعة فيخرقها بثقله، وهكذا حتى ينزل إلى الأرض، وفيه ملائكة كل سماء، فينزل أولاً ملائكة السماء الدنيا وهم أكثر من أهل الأرض من إنس وجن، ثم ينزل ملائكة السماء الثانية وهم أزيد من ملائكة سماء الدنيا، وهكذا، ثم ينزل الكروبيون وحملة العرش، فإذا نزل ملائكة سماء الدنيا اصطفوا حول العالم المجموع في المحشر صفاً، وإذا نزل ملائكة السماء الثانية اصطفوا خلف هذا الصف صفاً آخر، وهكذا، أي يحيطون بمن بعدهم حتى يصيروا سبع صفوف حول العالم.

{ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ} أي السلطنة القاهرة الثابتة ثباتاً لا يمكن زواله صورة ومعنى ثابتة للرحمن يوم إذ تشق الغمام لا يشركه فيها أحد. {وَكَانَ يَوْماً} أي ذلك اليوم {عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيراً} أي شديداً بخلاف المؤمنين فقد جاء في الحديث أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا، {وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّٰلِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ} أي يوم القيامة يأكل الكافر يديه إلى المرفق، ثم ينبتان، ثم يأكلهما وهكذا فلا يزال كذلك كما قاله الضحاك وعطاء وقال أهل التحقيق: هذه اللفظة كناية عن الندامة والغم. {يَقُولُ} حال من فاعل يعض {***يا} لمجرد التنبيه من غير قصد إلى تعيين المنبه {يٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً} أي ليتني صاحبت رسول الله في اتخاذ سبيل الهدى، واستقمت على دين الرسول. {يٰوَيْلَتَا} أي يا هلاكي، تعال فهذا أوانك {لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً} أي صديقاً وافقته في أعماله. {لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ} أي والله لقد صرفني عن القرآن وموعظة الرسول {بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى}.

قال ابن عباس: والمراد بالظالم: عقبة بن أبي معيط بن أمية، بن عبد شمس كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً يدعو إليه جيرانه من أهل مكة، ويكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم، ويعجبه حديثه، فصنع طعاماً ودعا الرسول، فلما قرب إليه الطعام قال صلى الله عليه وسلم: «ما آكل من طعامك حتى تأتي بالشهادتين» فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فأكل صلى الله عليه وسلم من طعامه. وكان أبي بن خلف الجمحي صديقه فعاتبه، فقال له: يا عقبة قد ملت إلى دين محمدٍ فقال عقبة: والله ما ملت ولكن دخل علي رجل فأبى أن يأكل طعامي إلا أن شهدت له، فاستحيت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له، فطعم فقال: أبيّ لا أرضى عنك أبداً حتى تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه، فأتاه فوجده ساجداً في دار الندوة

ففعل عقبة ذلك، فعاد بزاقه على وجهه فحرقه، فقال صلى الله عليه وسلم له: «لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف» فنزل قوله تعالى: {عَسِيراً وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّٰلِمُ} إلخ، فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبراً ولم يقتل يومئذ من الأسارى غيره وغير النضر بن الحرث، وأما أبيّ بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وسلم بيده، طعنه في أحد، فرجع إلى مكة ومات. وقال الشعبي: كان عقبة خليل أمية فأسلم عقبة وقال أمية، وجهي من وجهك حرام إن بايعت محمداً فارتد، فأنزل الله تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّٰلِمُ} وعلم من ذلك أن المراد بفلان أبي أو أمية {وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ} أي إبليس {لِلإِنْسَٰنِ} أي الكافر {خَذُولاً} أي مبالغاً في ترك النصرة بعد المعاونة، وكان يعد الإنسان في الدنيا بأنه ينفعه في الآخرة وهذا من كلام الله تعالى، فإن آخر كلام الظالم بعد إذ جاءني، فالوقف عليه تام {وَقَالَ ٱلرَّسُولُ} محمد صلى الله عليه وسلم شكاية لله مما صنع قومه وفي هذا تخويف لقومه، لأن الأنبياء إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم، عجل الله لهم العذاب. وهذا عطف على قوله تعالى: {وَقَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا}. {يٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءانَ مَهْجُوراً} أي متروكا بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يتأثروا بتخويفه وفي هذا تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن، كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم فإنه روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من تعلّم القرآن وعلّق مصحفه ولم يتعاهده ولم ينظر فيه، جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول: يا رب، عبدك هذا اتخذني مهجوراً ٱقض بيني وبينه». {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوّاً مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ} أي كما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون، ويفعلون ما يفعلون جعلنا لكل نبي من الأنبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة إليها عدواً من مجرمي قومهم فاصبر كما صبروا، {وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً} أي كفاك مبلغك إلى الكمال ومالك أمرك هادياً لك إلى مصالح الدين والدنيا وناصراً لك على جميع من يعاديك.

{وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} من أهل مكة كأبي جعل وأصحابه {لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وٰحِدَةً} أي هلا أنزل القرآن كله جملة واحدة، كالكتب الثلاثة: التوراة والإنجيل والزبور {كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ} أي مثل ذلك التنزيل المفرّق نزلناه لنقوي بذلك فؤادك، فإن فيه تيسير الحفظ، وفهم المعاني.

وهذا كلام الله ذكره جواباً لهم ورداً لهذه الشبهة {وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً} معطوف على الفعل المقدر الذي تعلق به كذلك، أي كذلك

أنزلناه وآتينا بعضه بعد بعض على تؤدة وتمهل في ثلاث وعشرين سنة {وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَـٰكَ بِـ لْحَقِّ} أي ولا يأتي المشركون إياك يا أشرف الخلق بسؤال عجيب، يريدون به القدح في نبوتك إلا جئناك بالجواب الحق الذي يدفع قولهم، {وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً} بياناً وبأقوى حجة { لَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ} أي يحشرون يوم القيامة كائنين على وجوههم يسبحون عليها، ويجرون إلى جهنم. وهذا الموصول صفة للموصول الأول، أو بدل منه {أُوْلَئِكَ} أي الذين أوردوا هذه الأسئلة على سبيل التعنت {شَرٌّ مَّكَاناً} أي منزلاً في الآخرة وعملاً في الدنيا {وَأَضَلُّ سَبِيلاً} عن الحق {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى لْكِتَٰبَ} أي أنزلنا التوراة على موسى بعد غرق فرعون وقومه، {وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيراً} يعينه في الدعوة وإعلاء الكلمة {فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى لْقَوْمِ لَّذِينَ كَذَّبُواْ بِأَايَٰتِنَا} أي آيات الإلهية وهي مصنوعات الله تعالى الدالة على انفراده بالملك والعبادة، أي فذهبا إليهم فأرياهم الآيات التسع كلها، وهي آيات النبوة، فكذبوها كما كذبوا الآيات الإلهية {فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيراً} أي أهلكناهم عقب ذلك التكذيب إهلاكاً عجيباً {وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ} أي نوحاً ومن قبله، فإنهم اشتركوا في المجيء بالتوحيد {أَغْرَقْنَٰهُمْ}.

فقال الكلبي: أمطر الله عليهم السماء أربعين يوماً وأخرج ماء الأرض أيضاً في تلك الأربعين فصارت الأرض بحراً واحداً {وَجَعَلْنَٰهُمْ} أي وجعلنا إغراقهم {لِلنَّاسِ ءَايَةً} أي عبرة لمن سمع قصتهم لكيلا يقتدوا بهم، {وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ} أي قوم نوح ومن سلك سبيلهم في تكذيب الرسل {عَذَاباً أَلِيماً} هو عذاب الآخرة، {وَعَاداً} عطف على المفعول الأول «لجعلنا»، {وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ}، وهي بئر غير مطوية، ولهم وجوه.

أحدها: هم قوم يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً فكذبوه، فبينما هم حول البئر خسف الله بهم وبديارهم.

وثانيها: أن الرس قرية بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود، فبعث إليهم نبي فقتلوه، فهلكوا.

وثالثها: هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان ابتلاهم بطير عظيم فيها من كل لون سمي بالعنقاء فتخطف صبيانهم، وعروساً فدعا عليها حنظلة فأصابتهم الصاعقة، ثم إنهم قتلوا حنظلة عليه السلام فأهلكوا.

ورابعها: أن الرس بئر في أنطاكية كذبوا حبيباً النجار وقتلوه، فدسوه في البئر.

وخامسها: عن علي رضي الله عنه أنهم كانوا قوماً يعبدون شجر الصنوبر وإنما سموا أصحاب الرس لأنهم رسوها في الأرض بينهم.

وسادسها: هم قوم كانت لهم قرى على شاطىء نهر يقال له: الرس من بلاد المشرق فبعث الله إليهم نبياً من ولد يهوذا بن يعقوب، فكذبوه، فلبث فيهم، فشكا إلى الله تعالى منهم فحفروا بئراً ورسوه فيها، فأرسل الله تعالى ريحاً عاصفة شديدة الحمرة، فصارت الأرض من تحتهم حجر كبريت متوقد، وأظلتهم سحابة سوداء، فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص. {وَقُرُوناً بَيْنَ ذٰلِكَ كَثِيراً} أي أقواماً كثيراً بين الطوائف المذكورة {وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ ٱلأَمْثَالَ} أي كل قرن بينا له القصص العجيبة الزاجرة عن الكفر والمعاصي بواسطة الرسل {وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً} أي كل واحد منهم فتتنا تفتيتاً لما كذبوا الرسل فإنا لم نهلكهم إلا بعد الإنذار وجواب ما أوردوه من الشبه حتى وضح لهم السبيل.

{وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيۤ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ} أي وبالله لقد مرَّ قريش على قرية سذوم من قرى قوم لوط التي أهلكت بالحجارة من السماء في أسفارهم إلى الشام للتجارة، {أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا} أي أفلم يكونوا في مرورهم ينظرون إلى آثار عذاب الله تعالى {بَلْ كَانُواْ لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً} أي بل كانوا قوماً ينكرون البعث، ولا يؤمنون بالجزاء الأخروي فلا يرجون ثواب الآخرة حينئذ لا يتحملون متاعب التكاليف ومشاق الاستدلال {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً}، أي إذا رآك يا أشرف الخلق كفار مكة قصروا معاملتهم معك على اتخاذهم إياك هزواً فقوله: {إِن يَتَّخِذُونَكَ} جواب «إذا»، واختصت «إذا» بكون جوابها لا يحتاج إلى الفاء إذا كان منفياً بما أو إن أو لا بخلاف غيرها من أدوات الشرط. {أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً}. وهذا محكي لقول مضمر هو حال من فاعل «يتخذونك» أي إذا رأوك يستهزئون بك قائلين: أبعث الله هذا رسولاً إلينا، وهذا على سبيل الاستهزاء. والمعنى: أهذا الذي يزعم أنه بعثه الله رسولاً {إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلاَ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا}.

ويروى أن هذا من قول أبي جهل و «إن» مخففة من «إن» الثقيلة، وضمير الشأن محذوف أي إن الشأن كاد هذا الرجل ليصرفنا من عبادة آلهتنا صرفاً كلياً لولا أن ثبتنا عليها، وهذا اعتراف منهم بأنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة إلى التوحيد وإقامة الحجج وإظهار المعجزات إلى حيث قاربوا أن يتركوا دينهم، لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم. {وَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ} الذي يستحقه كفرهم وعنادهم عياناً في الآخرة {مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً} أي من أخطأ حجة فهذا وعيد شديد لهم على الإعراض عن الاستدلال والنظر {أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً}. وهذا أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالتعجب من شناعة حالهم، أي أرأيت يا أشرف الخلق الذي جعل معبوده ما يهواه وهو النضر وأصحابه أفأنت تكون عليه حفيظاً تحفظه من اتباع هواه أي لست كذلك. وقال سعيد بن جبير: كان الرجل من المشركين يعبد الصنم، فإذا رأى أحسن منه رماه واتخذ الآخر وعبده. {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ} أي بل أتحسب أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات سماع تفكّر، أو يفهمون ما فيها من المواعظ الزاجرة عن القبائح الداعية إلى المحاسن، وهذا انتقال عن الإنكار المذكور إلى إنكار حسبانه صلى الله عليه وسلم لهم ممن يسمع أو يعقل ف «أم» بمعنى بل والهمزة التي للاستفهام الإنكاري وإنما ذكر الأكثر لأنه كان فيهم من يعرف الله تعالى ويعقل الحق إلا أنه ترك الإسلام لمجرد حب الرياسة لا للجهل. {إِنْ هُمْ إِلاَّ كَٱلأَنْعَٰمِ} في عدم انتفاعهم بقرع الآيات آذانهم، وعدم تدبرهم فيما شاهدوا من الدلائل والمعجزات، وإقبالهم على اللذات الحاضرة {بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً} من الأنعام، لأنها تنقاد لمن يتعهدها، وتميز من يحسن إليها ممن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها، وتتجنب ما يضرها وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه تعالى من إساءة الشيطان ولا يطلبون الثواب ولا يتقون العقاب، ولأنها جارية إلى ما خلقت هي له فلا تقصير منها، في طلب الكمال لأنه غير ممكن منها وهؤلاء معطلون لعقولهم مستحقون بتقصيرهم أعظم العقاب، {أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ} أي ألم تعلم يا أشرف الخلق إلى حسن صنع ربك، {كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ}؟ أي كيف بسطه؟ فالظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص، والظلمة الخالصة، وهو فيما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران، وهو أطيب الأحوال، لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وتسد النظر والضوء الخالص من شعاع الشمس يبهر البصر ويسخن الجو، وهي مؤذية. {وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً} أي دائماً غير زائل بأن لا تذهبه الشمس {ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ} أي الظل {دَلِيلاً}، فالنظر إلى الجسم الملون وقت الظل لا يشاهد شيئاً سوى الجسم، واللون، ولا يعرف شيئاً ثالثاً فإذا طلعت الشمس ووقع ضوءها على الجسم، زال ذلك الظل، فعرف أن للظل وجوداً لأن الأشياء إنما تعرف بأضدادها، فلولا الشمس لما عرف الظل،

ولولا الظلمة لما عرف النور، فالله تعالى لما أطلع الشمس على الأرض، وأزال الظل، ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون، فلهذا قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً} أي خلقنا الظل أولاً بالمنافع واللذات، ثم إنا هدينا العقول إلى معرفة وجوده بإطلاع الشمس فكانت الشمس دليلاً على وجود هذه النعمة، والخطاب في {أَلَمْ تَرَ} عام، وإن كان ظهره للرسول، لأن المقصود بيان إنعام الله تعالى بالظل وجميع الملكفين مشتركون في تنبههم على هذه النعمة وتوجيه الرؤية إلى الله تعالى إشارة إلى أن الذي ينبغي للعاقل أن يكون مطمح نظره معرفة شؤون الصانع الحكيم وأن يكون نظره مقصور على الآثار والصنائع، {ثُمَّ قَبَضْنٰهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً} أي ثم أزلنا الظل يسيراً يسيراً، فكلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل، وقبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح، فإذا غربت الشمس، فليس هناك ظل إنما ذلك بقية نور النهار وقوله تعالى: {إِلَيْنَا} للتصريح على كون مرجع الظل إليه تعالى كما أن حدوثه منه تعالى، {وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاساً} أي مثل اللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس {وَٱلنَّوْمَ سُبَاتاً} أي جعل النوم الواقع في الليل قطعاً عن الأفعال المختصة بحال اليقظة. {وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً} أي زمان بعث من ذلك النوم. وفي هذا إشارة إلى أن النوم واليقظة أنموذج للموت والنشور. وعن لقمان: يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت وتنشر {وَهُوَ ٱلَّذِىۤ أَرْسَلَ ٱلرِّيٰحَ بُشْرَى بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ} أي قدام المطر.

وقرأ ابن كثير «الريح» بالإفراد وقرأ «نشراً» نافع وابن كثير وأبو عمرو بضم النون والشين أي ناشرات للسحاب. وقرأه ابن عامر بضم النون وسكون الشين. وقرأه حمزة والكسائي بفتح النون وسكون الشين على أنه مصدر بمعنى اسم الفاعل أي متفرقة. وقرأه عاصم بالباء الموحدة المضمومة وسكون الشين أي مبشرات فالرياح المبشرات هي: الصبا، والجنوب، والشمال. أما الدبور: فهي ريح العذاب التي أهلكت بها عاد. {وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُوراً} أي بليغاً في الطهارة {لِّنُحْيِىَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً} أي مكاناً لا نبات فيه، أي ليصير ذا نبات {وَنُسْقِيَهُ} أي ذلك الماء {مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعٰماً} أي بهائم {وَأَنَاسِىَّ} جمع إنسان أصله أناسين، {كَثِيراً}. وهذا إما راجع ل «الأناسي»، وذلك لأن أكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأنهار ومنابع المياه فهم في غنية في شرب الماء عن المطر، وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب إلا عند نزول المطر وإما راجع إلى

«ونسقيه»، وذلك لأن الحيوان يحتاج إلى الماء حالاً بعد حال ما دام حياً وهو مخالف للنبات الذي يكفيه من الماء قدر معين حتى لو زيد عليه بعد ذلك لكان أقرب إلى الضرر.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ} أي وبالله لقد أجرينا المطر في البلاد المختلفة والأوقات المتغايرة والصفات المتفاوتة حتى انتفعوا بالزرعات، وأنواع المعاش به، كما روي مرفوعاً عن ابن مسعود قال: «ليس من سنة بأمطر من أخرى ولكن الله تعالى قسم هذه الأرزاق فجعلها في السماء الدنيا في هذا القطر ينزل منه كل سنة بكيل معلوم، ورزق معلوم وإذا عمل قوم بالمعاصي حول الله تعالى ذلك إلى غيرهم فما زيد لبعض نقص من غيرهم، وإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك المطر إلى الفيافي والبحار». {لِيَذَّكَّرُواْ}

وقرأ حمزة والكسائي بسكون الذال وضم الكاف، أي ليذكروا نعمة الله به ويقوموا بشكره. والباقون بفتح الذال والكاف مشددتين، أي ليعتبروا بالصرف إليهم وعنهم {فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً} أي جحوداً للنعمة من حيث لا يتفكرون فيها، ولا يستدلون بها على وجود الصانع وقدرته وإحسانه. وقيل: المعنى: وبالله لقد كررنا هذا القول الذي هو ذكر إنشاء السحاب وإنزال القطر بين الناس المتقدمين والمتأخرين في القرآن، وسائر الكتب المنزلة على الرسل ليستدلوا به على الصانع، فأبى أكثر الناس إلا كفور النعمة القرآن والكتب، ولنعمة المطر حيث أسندوها لغير خالقها، {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً} أي نبياً ينذر أهلها فيخف عليكم أعباء الرسالة، ولكنا قصرنا الأمر عليكم وفضلناك على سائر الرسل {فَلاَ تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ} أي فلا توافقهم فيما يأمرونك {وَجَٰهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً} أي جاهدهم بسبب كونك نذيراً كافة القرى جهاداً جامعاً لك مجاهدة، أو وجاهدهم ملابساً بترك طاعتهم بل بالشدة لا بالمداراة جهاراً كبيراً، وذلك بتلاوة ما في القرآن من الزواجر والنواذر وتذكير أحوال الأمم المكذبة، فإن مجاهدة السفهاء بالحجج أكبر من مجاهدة الأعداء بالسيف. {وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ} أي أرسلهما في مجاريهما متلاصقين {هَٰذَا عَذْبٌ} أي سائغ {فُرَاتٌ} أي بالغ في العذوبة حتى يصير إلى الحلاوة، {وَهَٰذَا مِلْحٌ} أي مر {أُجَاجٌ} أي زعاق. {وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا} أي الطيب والمالح {بَرْزَخاً} أي حائلاً غير مرئي بقدرة الله تعالى {وَحِجْراً مَّحْجُوراً} أي ستراً ممنوعاً به تغيير أحدهما طعم الآخر، فالعذوبة أو الملوحة، إن كانت بسبب طبيعة الأرض أو الماء فلا بد من الاستواء، وإن لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخص كل واحد من الأجسام بصفة خاصة {وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ} أي

من ماء الذكر والأنثى {بَشَراً} أي خلقاً كثيراً {فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً} أي فقسم البشر قسمين: ذكوراً ينسب إليهم وإناثاً يصاهر بهن، أي يقارب ويخالط بهن. وقيل: النسب: ما لا يحل تزويجه من القرابة، والصهر ما يحل التزويج من القرابة وغيرها. {وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً} حيث خلق من مادة واحدة بشراً مختلفاً ألوانه، وأعضاؤه وطباعه. وربما خلق من نطفة واحدة توأمين فأكثر. {وَيَعْبُدُونَ} أي كفار مكة {مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ} بعبادته في الدنيا والآخرة {وَلاَ يَضُرُّهُمْ} بترك عبادته فيهما، وهو الأوثان. {وَكَانَ ٱلْكَٰفِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً} أي وكان الكافر جماعة بعضهم معاون لبعض على إطفاء نور دين الله، أو وكان الكافر معاوناً للشيطان على عصيان ربه بالعداوة والشرك، {وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلاَّ مُبَشِّراً} للمؤمنين على الطاعة {وَنَذِيراً} للكافرين على المعصية. {قُلْ} يا أكرم الرسل لأهل مكة: {مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً} أي لا أطلب على تبليغ الرسالة من أموالكم أجراً إلا فعل من أراد أن يطلب المنزلة عند الله تعالى بالإيمان والطاعة كما أدعوكم إليهما. وقيل: لا أطلب من أموالكم جعلاً لنفسي عن التبليغ لكن من شاء أن ينفق أمواله لاتخاذ السبيل إلى ربه بالصدقة وغيرها فليفعل فالاستثناء على الأول متصل، وعلى الثاني منقطع. {وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لاَ يَمُوتُ} أي اعتمد بقلبك في كل الأمور على الله تعالى والأسباب وسائط أمر بها من غير اعتماد عليها، {وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} أي نزهه تعالى عن صفات النقصان مثنيا عليه بنعوت الكمال طالباً لمزيد الإنعام بالشكر على كثير نعمه. {وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً} أي كفى الله مطلعاً على ذنوب عباده ما ظهر منها وما بطن.

{ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ} أي في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا، فخلق الأرض في يومين: الأحد والاثنين. وما بينهما في يومين: الثلاثاء والأربعاء. والسمٰوات، في يومين الخميس والجمعة وفرغ من آخر ساعة من يوم الجمعة ومحل الموصول جر على أنه صفة ثانية ل «الحي» {ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ} فالوقف على العرش تام إن أعرب «الرحمٰن» على المدح خبر مبتدأ محذوف، أي هو الرحمٰن الذي لا ينبغي السجود إلا له وهو في الحقيقة صفة ثالثة ل «الحي» كما قرأ زيد بن علي بالجر، لأن المنصوب والمرفوع على سبيل المدح وإن خرجا عن التبعية لما قبلها صورة تابعان له حقيقة ولا يوقف على العرش إن أعرب «الرحمٰن» بدلاً من الضمير المستكن في «استوى» فحينئذ فالوقف على الرحمٰن، وهو وقف كافٍ. ومعنى

«استوى على العرش» أي ارتفع خالق السموات والأرض ارتفاعاً يليق بجلاله وتصرف في ملكه تصرفاً تاماً. {فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً} أي فاسأل أيها الإنسان عنه تعالى عالماً بصفاته من الراسخين في العلم، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ} أي وإذا قيل لكفار مكة: اخضعوا للرحمن بالتوحيد والصلاة وغير ذلك. {قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ}: وما نعرف الرحمٰن إلا مسيلمة الكذب أي فإنهم اعترفوا بالله لكنهم جهلوا أن هذا الاسم من أسماء الله تعالى {أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا} أي للذي تأمرنا بسجوده من غير أن نعرف السجود له ماذا.

وقرأ حمزة والكسائي بالياء أي أنسجد لما يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو هل هو مسيلمة الكذاب أو غيره أو كان الضمير راجعاً لسيدنا محمد على أن بعضهم قال لبعض: أنسجد لأمر محمد إيانا بالسجود من غير معرفتنا للمسجود له. {وَزَادَهُمْ} أي الأمر بسجود الرحمن {نُفُوراً} أي تباعداً عن الإيمان {تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجاً} أي منازل الكواكب السبعة السيارة المنظومة في قول بعضهم: زحل شرى مريخه من شمسه فتزاهرت لعطارد الأقمار وأسماء البروج منظومة في قول بعضهم: حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان ورمى عقرب بقوس لجدي نوح الدلو بركة الحيتان وهذه البروج الإثنا عشر مقسومة على الطبائع الأربع فيكون نصيب كل واحد منها ثلاثة بروج تسمى المثلثات، فالحمل والأسد والقوس: مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدي: مثلثة أرضية. والجوزاء والميزان والدلو: مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية. {وَجَعَلَ فِيهَا} أي البروج {سِرَاجاً} وهو الشمس.

وقرأ حمزة والكسائي «سرجاً» بضم السين والراء وهي الشمس والكواكب الكبار، {وَقَمَراً مُّنِيراً} أي مضيئاً بالليل. وقرأ الحسن والأعمش و «قمراً» وهي جمع قمراء، لأن الليالي تكون قمراء بالقمر {وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً} أي يعتقبان يأتي أحدهما بعد الآخر {لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ}.

قرأ حمزة بسكون الذال وضم الكاف. والباقون بفتح الذال والكاف مشددتين. وعن أبي بن كعب: ليتذكر أي لينظر الناظر في اختلافهما، فيعلم أنه لا بد في انتقالهما من حال إلى حال من صانع رحيم للعباد، {أَوْ أَرَادَ شُكُوراً} أي ليشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف في النهار. وقال عمر بن الخطاب، وابن عباس، والحسن، معنى الآية: من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار. ومن فاته بالنهار أدركه بالليل {وَعِبَادُ

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ هَوْناً} أي هينين أي إن مشى عباد الله المقبولين في لين وسكينة وتواضع لا يضربون بأقدامهم، ولا يتبخترون لأجل الخيلاء. وعن زيد بن أسلم قال: التمست تفسير «هوناً» فلم أجد، فرأيت في النوم فقيل لي: هم الذين لا يريدون الفساد في الأرض. و «عباد» مبتدأ خبره الموصول و «ما» عطف عليه. {وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَٰهِلُونَ} بالسوء {قَالُواْ سَلاَماً} أي ردوا معروفاً كأن يقولوا لا خير بيننا وبينكم، ولا شر فهو سلام توديع لا تحية. كقول سيدنا إبراهيم عليه السلام لأبيه سلام عليكم: {وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَٰماً} أي يحيون الليل بالصلاة، و «سجداً» خبر «يبيتون». {وَ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ} في دعائهم: {رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً} أي هلاكاً لازماً أي فإنهم مع اجتهادهم في العبادة خائفون من عذاب الله.

{إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً} وهذا يمكن أن يكون من كلام الله تعالى فهو مستأنف، وأن يكون حكاية لقولهم تعليل بسوء حالها في نفسها عقب تعليل بسوء حال عذابها. والمعنى: أن جهنم بئست جهنم هي حال كونها مستقراً للعصاة من أهل الإيمان فإنهم غير مقيمين فيها وحال كونها مقاماً للكافرين فإنهم يخلدون ويقال: إن جهنم أحزنت داخليها من جهة موضع استقرار، ومن جهة موضع إقامة. {وَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ} أي لم يجاوزوا حد الكرام {وَلَمْ يَقْتُرُواْ} أي ولم يضيفوا تضييق الشحيح {وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} أي وكان إنفاقهم بين الإسراف والإقتار وسطاً.

وقرأ نافع وابن عامر «يقتروا» بضم التحتية وكسر الفوقية، وابن كثير وأبو عمرو بفتح التحتية وكسر الفوقية، والكوفيون بفتح التحتية وضم الفوقية فالقراءات السبعية ثلاثة والقاف على كل ساكنة. وقرىء «قواماً» بكسر القاف، أي ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص. وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة، ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم، ويلبسون ما يستر عوراتهم ويصونهم من الحر والبرد.

وروي أن رجلاً صنع طعاماً في أملاك، فأرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «حق فأجيبوا». ثم صنع الثانية فأرسل إليه فقال: «خلق فمن شاء فليجب وإلا فليقعد». ثم صنع الثالثة فأرسل إليه فقال: «رياء ولا خير فيه». {وَ ٱلَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ} أي لا يعبدون {مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ}.والمقصود من هذا تنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار {وَلاَ يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ

لَّتِى حَرَّمَ ٱللَّـهُ إِلاَّ بِـ لْحَقِّ} أي بـالردة وبالقتـل قـوداً، وبالزنـا بعـد الإحصان، فالمقتضى لحرمة القتل قائم أبداً وجواز القتل إنما ثبـت بالمعارض فقوله تعالى: {حَرَّمَ ٱللَّهُ} إشارة إلى المقتضى وقوله: {إِلاَّ بِـ لْحَقّ} إشارة إلى المعارض {وَلاَ يَزْنُونَ}.وعن ابن مسـعود قلت: يا رسول الله أيّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قلت: ثم أيّ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك» قلت: ثم أيّ قال: أن «تزني بحليلة جارك». فأنزل الله تعالى هذه الآية تصديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم. {وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ} أي ما ذكر من الثلاثة كما هو دأب الكفرة المذكورين {يَلْقَ أَثَاماً} أي جزاء إثمه. وقال الحسن: الأثام اسم من أسماء جهنم. وقال مجاهد: الأثام واد في جهنم.

وقرأ ابن مسعود أياماً أي شدائد، لأنه يقال لليوم الصعيب يوم ذو أيام {يُضٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ}. وقرأ ابن كثير وابن عامر يضعف بتشديد العين وإسقاط الألف {وَيَخْلُدْ فِيهِ} أي في ذلك العذاب {مُهَاناً} أي مقروناً بالإذلال كما أن الثواب مقرون بالتعظيم. وقرأ ابن عامر وشعبة «يضاعف» و «يخلد» كلاهما بالرفع على الاستئناف، أو على الحال. وقرأ حفص مع ابن كثير «فيه» بصلة الهاء بالياء {إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صٰلِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنٰتٍ} أي يغفر الله لهم تلك السيئات، ويكتب موضع كافر مؤمن وموضع عاص مطيع، ولا يبعد في كرم الله تعالى إذا صحت توبة العبد أن يضع مكان كل سيئة حسنة. وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن». {وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}. روى البخاري عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في أهل الشرك، فلما نزل صدرها قال أهل مكة: قد عدلنا بالله وقتلنا النفس التي حرم الله، وأتينا الفواحش فأنزل الله الا من تاب إلى رحيما.

{وَمَن تَابَ} عن المعاصي بتركها والندم عليها، {وَعَمِلَ صٰلِحاً} يتدارك به ما فرط، ولو كان نيته وعمله كلاهما ضعيفاً {فَإِنَّهُ يَتُوبُ} أي يرجع {إِلَى ٱللَّهِ مَتَاباً} أي رجوعاً مرضياً عند الله أي ومن تاب عن المعاصي إلى الطاعة، فإن التوبة منه في الحقيقة توبة إلى الله أي فإنه قد أتى بتوبة مرضية لله مكفرة للذنوب، محصلة للثواب، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ليتمنين أقوام لو أنهم أكثروا من السيئات». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات». {وَ ٱلَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ} أي لا يحضرون مواضع الكذب، فإن

حضور مجامع الفساق مشاركة لهم في تلك المعصية ولأن النظر دليل الرضا بها أو لا يشهدون بالكذب.

وقال محمد بن الحنفية: الزور الغناء {وَإِذَا مَرُّواْ بِاللَّغْوِ} أي بأهل اللغو على سبيل الاتفاق من غير قصد {مَرُّواْ كِراماً} أي مكرمين أنفسهم عن مثل حال اللغو، وهو كل ما يجب أن يترك وإكرامهم لأنفسهم لا يكون إلا بالإعراض وبالإنكار وبترك المعاونة {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِأايٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً} أي والذين إذا وعظوا بالآيات المشتملة على الأحكام والمواعظ أكبوا على تلك الآيات حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها، وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذان واعية مبصرون بعيون راعية. لا كالذين يظهرون الحرص الشديد على استماعها، وهم كالصم والعميان، كالمنافقين والكفرة كأبي جهل والأخنس بن شريق فالمراد من النفي نفي الحال دون الفعل وهو الخرور كقولك: لا يلقاني زيد مسلماً فهو نفي للإسلام لا للقاء وذلك تعريض بما يفعله الكفرة والمنافقون، {وَ لَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوٰجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ} أي اجعل لنا ما يحصل به سرور أعين من أزواجنا وذرياتنا بأن نراهم صالحين مطيعين لك. وعن محمد بن كعب ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده يطيعون الله.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم «ذرياتنا» بألف على الجمع. والباقون بغير ألف على الإفراد {وَ جْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً} أي يقتدون بنا في أمر الدين بإفاضة العلم وبالتوفيق للعمل {أُوْلَئِكَ} أي المتصفون بتلك الصفات الثمانية {يُجْزَوْنَ لْغُرْفَةَ} أي يثابون أعلى منازلة الجنة {بِمَا صَبَرُواْ} أي بسبب صبرهم على طاعة الله والفقر والمرازي {وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَماً}. قرأ حمزة والكسائي وشعبة «يلقون» بفتح الياء وسكون اللام أي يجدون في الغرفة إكرام الله تعالى لهم بالهدايا وسلامه عليهم بالقول. والباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف أي يجعلهم الله تعالى في الغرفة لاقين ذلك. {خَٰلِدِينَ فِيهَا} أي في الغرفة، لا يموتون ولا يخرجون {حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً}، أي حسنت الغرفة من حيث موضع الاستقرار وموضع الإقامة هي. {قُلْ} يا أشرف الخلق لأهل مكة: {مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلاَ دُعَآؤُكُمْ} أي أيّ اعتداد يعتد بكم لولا عبادتكم له تعالى فإنكم وسائر البهائم سواء أو لا يبالي بكم ربكم لولا دعاؤه إياكم إلى طاعته، فإن مبالاة الله بشأن عباده حيث خلق السموات والأرض وما بينهما إنما هو ليعرفوا حق المنعم ويطيعوه فيما كلفهم به

{فَقَدْ كَذَّبْتُمْ} بما أخبرتكم به {فَسَوْفَ يَكُونُ} أي جـزاء التكـذيب {لِزَاماً} أي ملازماً لكم وهو عقاب الآخرة.

سورة الشعراء

مكية، إلا أربع آيات من قوله: {وَٱلشُّعَرَاء} إلى آخر السورة فمدنية، وهي مائتان وسبع وعشرون آية، وألـف ومائتان وسبع وسـتون كلمـة وخمسـة آلاف وخمسـمائة واثنان وأربعون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. طسٓمٓ} ومحله رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف إن كان اسماً للسورة وأمـا إن كـان مسـروداً علـى نمط التعديد بطريق التحدي فلا محل له من الإعراب وقيل: قسـم أقسم الله تعالى به. وقال أهل الإشارة: هو إشارة إلى طاء طـوله تعالى في كمال عظمته وإلى سين سـلامته عـن كـل عيـب ونقـص وهو منفرد في تنزهه عنه وإلى ميم مجـده فـي عـزة كـرم لا نهاية لها، وإشارة أيضاً إلى طاء طهارة قلب نبيه محمد صلى اللـه عليـه وسلم عن الكونيين، وإلى سين سيادته علـى الأنبيـاء والمرسـلين، وإلى ميم مشاهدته لجمال رب العالمين. وإشـارة أيضـاً إلـى طـاء طيران الطائرين بالله، وإلى سين سير السـائرين إلـى اللـه، وإلـى ميم مشي الماشين لله، مشي العبوديـة لا مشـي التفخـر والتكـبر. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمنون هينون لينون كالجمل الآنف إن قيد انقاد وإن أنيخ على صخرة استناخ». وعـن الـبراء بـن عازب أن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم قـال: «إن اللـه أعطـاني السـبع الطـوال مكـان التـوراة وأعطـاني المـص مكـان الإنجيـل وأعطاني الطواسين مكان الزبور، وفضـلني بـالحواميم والمفصـل ما قرأهـن نـبي قبلـي». {تِلْـكَ} أي هـذه السـورة {ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ} أي آيات القرآن الظاهر إعجازه والمبين للأحكام، فألفـاظ القرآن من حيث تعذر عليهـم أن يـأتوا بمثلـه يمكـن أن يسـتدل بـه على فاعل مخالف لهم، كما يستدل بسائر مـا لا يقـدر العبـاد علـى مثله، فهو دليل التوحيـد مـن هـذا الـوجه، ودليـل النبـوة مـن حيـث الإعجاز، ويعلم به بعد ذلك أنه إذا كان من عند الله تعالى فهو دلالـة الأحكام أجمع، وإذا ثبت هـذا صـارت آيـات القـرآن كافيـة فـي كـل الأصول والفروع أجمـع، {لَعَلَّـكَ بَـٰخِـعٌ نَّفْسَـكَ أَلاَّ يَكُونُـواْ مُـؤْمِنِينَ} فلعل للإشفاق وهو بمعنى الأمر أي أشـفق علـى نفسـك أن تقتلهـا لعدم إيمان قريش بذلك الكتاب الفاصل بيـن الحـق والباطـل، أو لا تبالغ في الحزن على ما فاتك من إسلام قومك لأنك يا أكرم الرسل

إن بالغت فيه كنت بمنزلة من يقتل نفسه، ثم لا ينتفع بذلك أصلاً، والله تعالى نبه رسوله أن غمه على ذلك لا نفع فيه، كما أن وجود الكتاب على وضوحه لا نفع لهم في الإيمان لما أنه سبق حكم الله بخلافه {إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ} أي إن نشأ ننزل عليهم من السماء علامة مخوفة لهم، قاصرة على الإيمان كرفع الجبل فوق رؤوسهم، كما وقع لبني إسرائيل فيصيروا لتلك العلامة منقادين في قبول الإيمان وذكر الأعناق لبيان موضع الخضوع، واكتسبت إضافتها إلى العقلاء حكمهم، كما اكتسبت الإضافة إلى المؤنث التأنيث كعكسه، ولذلك كان الخبر مجموعاً جمع سلامة لمذكر عاقل. {وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ} أي ما يأتي أهل مكة من موعظة من المواعظ القرآنية تنبههم عن الغفلة من جهة الله تعالى مجدد تنزيله بحسب المصلحة إلا وقد جددوا إعراضاً عنه على وجه التكذيب.

{فَقَدْ كَذَّبُواْ} أي بلغوا النهاية في رد الذكر الذي يأتيهم رداً مقارناً للاستهزاء به حيث جعلوه تارة سحراً، وأخرى أساطير وأخرى شعراً {فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَٰؤُا مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ} أي سيأتيهم مصداق استهزائهم من العقوبات العاجلة والآجلة {أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلأَرْضِ} أي أفعل كفار مكة الإعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها، ولم ينظروا إلى عجائب الأرض الزاجرة عما فعوا الداعية إلى الإيمان بالآيات {كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} أي كثيراً من كل صنف مرضى في جماله، وفي فوائده أنبتنا في الأرض، {إِنَّ فِي ذَلِكَ} الإنبات {لأَيَةً} عظيمة دالة على كمال قدرة المنبت، وغاية وفور عمله وحكمته ونهاية سعة رحمته {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ} أي وما أكثر قومه صلى الله عليه وسلم مؤمنين أي مع ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم، وكان صلة عند سيبويه، {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ} أي إن ربك غالب على الأمور، ومع ذلك رحيم بعباده، ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترأوا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات. {وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ} أي واذكر يا أكرم الرسل لأولئك المعرضين المكذبين وقت ندائه تعالى موسى عليه السلام، وذكرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم إياه زجراً لهم عن التكذيب.

قال أبو الحسن الأشعري: المسموع هو الكلام القديم، فكما أن ذاته تعالى لا تشبه الذوات مع أنها مرئية في الآخرة من غير كيف ولا جهة، فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحروف والأصوات مع أنه مسموع.

وقال أبو منصور الماتريدي: الذي سمعه موسى عليه السلام كان نداء من جنس الحروف والأصوات لأنا حكمنا بأن كل موجود يصح أن يرى ولم يثبت أنا نسمع الأجسام فلم يلزم صحة كون كل موجود مسموعاً. {أَنِ ٱئْتَ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي بالكفر والمعاصي واستعباد بني اسرائيل وذبح أبنائهم، وكان بنو إسرائيل في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفاً {قَوْمَ فِرْعَوْنَ} عطف بيان {أَلا يَتَّقُونَ}.

وهذا كلام مستأنف جيء به حملاً لموسى على التعجب من حالهم في الظلم والعسف، ومن عدم خوفهم أي تعجب يا موسى من عدم تقواهم.

وقرىء بكسر النون والأصل ألا يتقونني، فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء بالكسرة. وقرىء بتاء الخطاب على طريقة الالتفات الدال على زيادة الغضب عليهم، أي قل لهم: ألا تخافون عقاب الله في «ألا» للتنبيه وللعرض. {قَالَ} أي موسى إظهاراً لعجزه وطلباً للمعونة: {رَبِّ إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ} من أول الأمر {وَيَضِيقُ صَدْرِى} بتكذيبهم إياي {وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِى} بسبب ضيق القلب، وهذان الفعلان مرفوعان معطوفان على «أخاف».

وقرأ زيد بن علي، وطلحة، وعيسى، والأعمش بالنصب فيهما معطوفان على صلة «أن» و «الأعرج» بنصب الأول ورفع الثاني، {فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ} أي فأرسل جبريل إلى أخي هارون ليكون رسولاً مصاحباً لي في دعوة فرعون وقومه: وكان هارون إذ ذاك بمصر وموسى في المناجاة في الطور {وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ} أي تبعة قتل القبطي {فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ} به قبل أداء الرسالة، كما ينبغي إن أتيتهم وحدي فيفوت المقصود من الرسالة. {قَالَ} الله: {كَلاَّ} أي ارتدع يا موسى عما تظن أو حقاً لا أسلطهم عليك بالقتل، {فَ ٱذْهَبَا} أي اذهب أنت ومن طلبته وهو هارون {بِـَٔايَٰتِنَآ} الدالة على صدقكم، أي فإنها تدفع خوفكما {إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ} أي لكما ولعدوكما ناصر لكما عليه، وسامع لما يجري بينكما وبينه فأعلّيكما عليه، وأكسّر شوكته عنكما {فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} إليك وإلى قومك وإفراد الرسول لاتحادهما بسبب الأخوة واتفاقهما على شريعة واحدة، أو لأن المعنى: إن كل واحد منا رسول رب العالمين.

{أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىۤ إِسْرَٰءِيلَ}، و «أن» مفسرة، أي أطلقهم وخلهم وشأنهم ليذهبوا معنا إلى الشام، فانطلقا إلى فرعون، وقالا له ما أمرا به، وروى وهب وغيره: أنهما لما دخلا على فرعون وجداه وقد أخرج سباعاً من أسد ونمور وفهود، يتفرج عليها،

فخاف خدامها أن تبطش بموسى وهارون فأسرعوا إليها وأسرعت السباع إلى موسى وهارون، فأقبلت تلحس أقدامهما وتبصص إليهما بأذنابها، وتلصق خدودها بفخذيهما، فعجب فرعون من ذلك فقال: ما أنتما؟ قالا: إنّا رسول رب العالمين فعرف هو موسى عليه السلام: {قَالَ} عند ذلك لموسى عليه السلام {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا} أي في منازلنا {وَلِيداً} أي صغيراً {وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ} ثلاثين سنة، ثم خرج إلى مدين وأقام بها عشر سنين، ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله تعالى ثلاثين سنة، ثم بعد الغرق خمسين سنة. وقيل: مكث عليه الصلاة والسلام عند فرعون خمس عشرة سنة {وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ} وهي وكز القبطي حتى مات {وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ} أي الجاحدين لنعمتي عليك بالتربية، وعدم اتخاذك عبداً لي كبني إسرائيل أو من الذين يكفرون في دينهم، فقد كانت لهم آلهة {قَالَ} موسى: {فَعَلْتُهَآ} أي تلك الفعلة {إِذاً} أي حين إذ كنت لابثاً فيكم {وَأَنَاْ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ} أي الناسين عن معرفة ما يؤول إليه القتل، لأنه فعل الوكزة على وجه التأديب.

وقرىء من الجاهلين أي بأن ذلك الفعل يؤدي إلى القتل {فَفَرَرْتُ مِنكُمْ} إلى ربي {لَمَّا خِفْتُكُمْ} أن تؤاخذوني بما لا أستحقه بجنايتي، لأني قتلت القتيل خطأ، وأنا ابن اثنتي عشرة سنة مع كونه كافراً. وروي عن حمزة «لما خفتكم» بكسر اللام وب «ما» المصدرية، أي لتخوفي منكم {فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً} أي علماً وفهماً في الدين {وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ} بعد تلك الفعلة {وَتِلْكَ} أي التربية {نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِى إِسْرَٰءِيلَ}، ومحل «أن عبدت» رفع عطف بيان لتلك أو بدل من «نعمة» أي وتلك جعلك بني إسرائيل عبيدك وقصدك إياهم بذبح أبنائهم هو السبب في وقوعي عندك وإنفاقك علي مما أخذت من أموالهم، فلو لم يكن ذلك الظلم لكنت مستغنياً عن تربيتك، فلا نعمة لك علي بالتربية، ولا فضيلة لك في عدم استعبادي الذي مننت به علي، لأن استعبادك لغيري ظلم، كما أن عدم قتلك إياي لا يعد إنعاماً، لأن قتلك غيري ظلم.

وقال الزجاج: ويجوز أن يكون «أن عبدت» في محل نصب مفعولا لأجله والمعنى إنما صارت التربية نعمة علي لأجل أن عبدت بني إسرائيل فلو لم تفعل ذلك لكفاني أهلي. {قَالَ فِرْعَوْنُ} لما سمع منه عليه الصلاة والسلام تلك المقالة المتينة : {وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ} أي أيّ شيء رب العالمين الذي ادعيت أنك رسوله؟ {قَالَ} موسى مجيباً له بإبطال دعواه أنه إله: {رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ} أي خالق هذه الثلاثة، {إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ} باستناد هذه المحسوسات إلى موجود هو واجب الوجود، فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته، فالسؤال عن الحقيقة سفه. {قَالَ} أي فرعون: {لِمَنْ حَوْلَهُ} من أشراف قومهِ كانوا خمسمائة لابسين للأساورة ولم يلبسها إلا السلاطين: {أَلاَ تَسْتَمِعُونَ} جوابه، فقد سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله؟ {قَالَ} موسى: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلأَوَّلِينَ}، جاء موسى عليه السلام بدليل يفهمونه لأنهم يعلمون أنهم قد كان لهم آباء فنوا، وأنهم كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكون ومفن. {قَالَ} فرعون لخاصته وعليهم أقبية الديباج، مخوصة بالذهب، وقد خاف من تأثرهم من جواب سيدنا موسى عليه السلام: {إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيۤ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} لا يفهم السؤال لأني أسأله عن شيء وهو يجيبني عن آخر، وأسند فرعون الرسول إلى من حوله تكبراً عن أن يكون مرسلاً إلى نفسه، وسماه رسولاً بطريق الاستهزاء. {قَالَ} موسى: {رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَ ٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ} أي هو خالق موضع طلوع الشمس وغروبها ووقتهما وما بينهما فتشاهدون في كل يوم أنه يأتي الشمس من المشرق إلى المغرب على وجه نافع، تنتظم به أمور الكائنات وكل ذلك أمور حادثة مفتقرة إلى محدث قادر عليم حكيم {إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ} أي إن كان لكم عقل، علمتم أن لا جواب فوق ذلك وأن الأمر كما قلته. {قَالَ} فرعون لموسى عليه السلام لما عجز عن الحجج: {لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ} أي لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني، وكان من عادة اللعين أن يأخذ من يريد أن يسجنه فيطرحه في بئر عميقة فرداً لا يبصر فيها ولا يسمع حتى يموت، فكان ذلك أشد من القتل ولذلك لم يقل تعالى: لأسجننك، لأنه لا يفيد إلا صيرورته مسجوناً.

وروي أن اللعين يفزع من موسى فزعاً شديداً حتى كان لا يمسك بوله. {قَالَ} موسى له: {أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىءٍ مُّبِينٍ} أي أتفعل بي ذلك ولو جئتك بأمر بيِّن في باب الدلالة على وجود الله تعالى، وعلى أني رسوله أي وهل تستجيز أن تسجنني مع اقتداري على أن آتيك بالمعجزات الدالة على صدق دعواي؟ {قَالَ} فرعون له: {فَأْتِ بِهِ} أي بذلك الشيء {إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّدِقِينَ} في دعوى الرسالة، وفي أن لك برهاناً، وإنما أمره عليه السلام فرعون بالإتيان بالشيء الموضح لصدق دعواه عليه السلام، لظنه أنه يقدر على معارضته، ولطمعه في أن يجد موضعاً للإنكار. {فَأَلْقَىٰ عَصَٰهُ}.

قال ابن عباس: عصا موسى اسمها ماشا. وقيل: نبعة. {فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} أي حية عظيمة صفراء، ذكر تبين للناظرين أنه ثعبان بحركاته وبسائر العلامات، وليس بتمويه كما يفعله السحرة: {وَنَزَعَ يَدَهُ} من إبطه {فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ} تضيء الوادي من شدة بياضها من غير برص، لها شعاع كشعاع الشمس تعجب الناظرين إليها. قيل: لما رأى فرعون الآية الأولى قال هل لك غيرها فأخرج موسى يده فقال لفرعون ما هذه فقال فرعون: يدك. فما فيها فأدخلها في إبطه، ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار، ويسد الأفق، فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر أموراً ثلاثة. {قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا} الرسول {لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ} أي حاذق بالسحر، فإن الزمان كان زمن السحرة، وكان عند كثير منهم أن الساحر قد يجوز أن ينتهي بسحره إلى هذا الحد فلهذا روج فرعون عليهم هذا القول، {يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ} أي يريد هذا الرجل أن يخرجكم من مصر بما يلقيه بينكم من العداوات، فيفرق جمعكم، وهذا يجري مجرى التنفير عن موسى عليه السلام، فإن مفارقة الوطن أصعب الأمور، فنفرهم عنه بذلك {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} أي فأيّ شيء تأمرونني به في شأنه؟ فإني متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم. ومثل هذا الكلام يوجب انصراف القلوب عن العدو، فعند هذه الكلمات اتفقوا على جواب واحد {قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ} أي أخر مناظرتهما لوقت اجتماع السحرة. وقيل: احبسهما ولا تقتلهما لما روي أن فرعون أراد قتلهما، ولم يصل إليهما فقالوا له: لا تفعل فإنك إن قتلتهما أدخلت على الناس شبهة في الدين ولكن أخِّر أمرهما إلى أن تجمع السحرة ليقاوموها، فلا تثبت لهما حجة عليك.

وقرأ قالون «ارجه» بغير همز، وباختلاس كسرة الهاء وورش والكسائي بإشباع كشرة الهاء، وابن كثير وهشام بالهمزة الساكنة، وبصلة الهاء المضمومة. وأبو عمرو بضم الهاء مع الاختلاس وابن ذكوان بالهمز وكسر الهاء مع الاختلاس. وعاصم وحمزة بغير همز وإسكان الهاء {وَ ٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ} أي أنفذ إلى مدائن الساحرين شرطاً يحشرهم وذلك لظنهم إذا كثر السحرة غلبوا موسى عليه السلام وكشفوا حاله.

{يَأْتُوكَ} أي الحاشرون {بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} أي فائق في فن السحر على موسى، {فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} أي في زمان يوم معروف، وفي مكان معروف. وعن ابن عباس: وافق يوم السبت من أول يوم النيروز وهو أول سنتهم. وعن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً وسمى ابن إسحٰاق رؤساءهم:

سابورا وغادور وخطخط ومصفى وشمعون. وعن ابن جرير كان اجتماعهم بالإسكندرية. {وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُمْ مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ}. والاستفهام للحث على المبادرة إلى الاجتماع والتراجي للغلبة لا لاتباع السحرة، لأنه مقطوع به عندهم أي احضروا لتشاهدوا ما يكون من الجانبين، فإنا نرجو أن تكون الغلبة للسحرة، فنتبعهم لا نتبع موسى {فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّ لَنَا لأَجْراً} أي جزاء من المال والجاه {إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ} على موسى، فبذل فرعون لهم البذل والمنزلة. {قَالَ} فرعون: {نَعَمْ} أي لكم الأجرة على عملكم السحر، {وَإِنَّكُمْ إِذاً} أي إذ كنتم غالبين {لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ} عندي في الدخول على تكونون أول من يدخل علي، وآخر من يخرج عني.

وقرأ الكسائي «نعم» بكسر العين. {قَالَ لَهُمْ مُّوسَىٰ} مريداً لإبطال سحرهم، لأنه لا يمكن منه إلا بإلقائهم: {أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مُّلْقُونَ}. وهذا تهديد، أي إن فعلتم ذلك أتينا بما نبطله، {فَأَلْقَوْاْ حِبَٰلَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ} اثنين وسبعين حبلاً واثنتين وسبعين عصاً {وَقَالُواْ} أي السحرة عند الإلقاء: نقسم {بِعِزَّةِ فِرْعَونَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ} على موسى، {فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَٰهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} أي تبتلع بسرعة ما يغيرونه عن حاله الأول من الجمادية إلى كونه حية تسعى.

روي عن ابن عباس كانت حبالهم مطلية بالزئبق، وعصيهم مجوفة مملوءة من الزئبق، فلما حميت اشتدت حركتها، فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الأرض، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ثم فتحت فاها فابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم، حتى أكلت الكل. ثم أخذ موسى عصاه، فإذا هي كما كانت، فلما رأت السحرة ذلك قالوا لفرعون: كنا نساحر الناس فإذا غلبناهم بقيت الحبال والعصي، وكذلك إن غلبونا، ولكن هذا حق {فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجِدِينَ} أي سقطوا على الأرض ساجدين عقب ما شاهدوا ذلك من غير تلعثم، لعلمهم بأن مثل ذلك خارج عن حدود السحر وأنه أمر إلهي قد ظهر على يد موسى عليه الصلاة والسلام، لتصديقه. {قَالُوٓاْ آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ} عطف بيان ل «رب» العالمين، لأن فرعون كان يدَّعي الربوبية، فأرادوا عزله وإنما أسندوا الرب إلى موسى وهارون، لأنهما اللذان دعواهم إليه {قَالَ} أي فرعون للسحرة: {ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ} أي آمنتم لموسى بغير أن آذان لكمْ {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ} أي إن موسى علمكم شيئاً دون

شيء، فلذلك غلبكم، فإنكم فعلتم ذلك عن موافقة بينكم وبين موسى، وقصرتم في السحر لتظهروا أمر موسى وإلا ففي قوة السحرة أن يفعلوا مثل فعل موسى عليه السلام وهذه شبهة قوية في تنفير من يقبل قوله عليه السلام {فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} وبال ما فعلتم {لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلاَفٍ}، وهو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى {وَلأصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ} على شاطىء نهر مصر. وهذا تهديد شديد وليس في الإهلاك أقوى من ذلك، وليس في الآية أن فرعون فعل ذلك أو لم يفعل. {قَالُواْ} أي السحرة: {لاَ ضَيْرَ} أي لا ضرر في ذلك علينا {إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ} ومقصودهم بالإيمان محض الوصول إلى مرضاته تعالى، والاستغراق في أنوار معرفته وهذا أعلى درجات الصديقين. {إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} فإنا إلى ربنا، {وَأَنَا * نَطْمَعُ} كلاهما تعليل لعدم الضير، و {أَن كُنَّا} تعليل لطمع غفران الخطايا، أي لا ضير علينا في قتلك إيانا لأنا نرجو أن يغفر لنا ربنا شركنا لكوننا أول المؤمنين من الجماعة الذين حضروا ذلك الموقف من رعية فرعون. وقرىء «إن كنا» بالكسر على الشرط على طريقة قول المدل كقول العامل لمستأجر يؤخر أجرته: إن كنت عملت لك فوفني حقي.

{وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ} بعد ثلاثين سنة {أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى} من آمن بك من بني إسرائيل، وقرأ نافع وابن كثير بكسر النون ووصل الهمزة. والباقون بسكون النون وقطع الهمزة. وقرىء «أن سر» ف «أن» حرف تفسير {إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ} تعليل للأمر بالإسراء، أي لأنه يتبعكم فرعون وجنوده فلا يدركوكم قبل وصولكم إلى البحر ثم إن قوم موسى قالوا لقوم فرعون: إن لنا في هذه الليلة عيداً، ثم استعاروا منهم حليهم وحللهم بهذا السبب، ثم خرجوا بتلك الأموال في الليل إلى جانب البحر.

قال القرطبي: فخرج موسى عليه الصلاة والسلام ببني إسرائيل سحراً فترك الطريق إلى الشام على يساره، وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق، فيقول: هكذا أمرت. فلما أصبح فرعون وعلم بسري موسى ببني إسرائيل خرج في أثرهم، وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر وقوّى نفسه ونفس أصحابه بأن وصف قوم موسى بوصفين من أوصاف الذم، ووصف قوم نفسه بصفة المدح، وذلك قوله تعالى: {فَأَرْسَلَ فِرْعَونُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ} أي شرطاً جامعين للعساكر ليتبعوهم. قيل: كان له ألف مدينة واثنا عشر ألف قرية. وقال لهم: {إِنَّ هَٰؤُلاءِ} أي بني إسرائيل {لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ} أي

لطائفة قليلة، وكانوا ستمائة ألف مقاتل ليس فيهم من دون عشرين ولا من يبلغ ستين سوى الحشم، وفرعون يقللهم لكثرة من معه أو لإرادة ذلتهم. إذ روي أنه أرسل في أثرهم ألف ألف وخمسمائة ألف ملك مسور، ومع كل ملك ألف، وخرج فرعون في جمع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل على حصان، وعلى رأسه بيضة.

وعن ابن عباس خرج فرعون في ألف ألف حصان سوى الإناث.

وروي أن فرعون خرج على حصان أدهم وفي عسكره على لون فرسه ثلاثمائة ألف، {وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ} أي لفاعلون أفعالاً تضيق صدورنا حيث خالفوا ديننا وذهبوا بأموالنا التي استعاروها، وخرجوا من أرضنا بغير إذننا، {وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ} أي لجماعة يستعملون الحزم في الأمور.

وقرأ ابن ذكوان والكوفيون بألف بعد الحاء أي شاكون السلاح. وقرىء «حادرون» بالدال المهملة أي أقوياء أشداء. {فَأَخْرَجْنَـٰهُمْ} أي جعلنا في قلوب فرعون وقومه داعية الخروج {مِّن جَنَّـٰتٍ} أي بساتين من أسوان إلى رشيد، {وَعُيُونٍ} أي أنهار جارية في البساتين والدور، {وَكُنُوزٍ} أي أموال. وسميت كنوزاً لأنهم لم ينفقوا منها في طاعة الله تعالى. قيل: كان لفرعون ثمانمائة ألف غلام كل غلام، على فرس عتيق، في عنق كل فرس طوق من ذهب {وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} أي منازل حسنة قيل: كان فرعون إذا قعد على سريره وضع بين يديه ثلاثمائة كرسي من ذهب يجلس عليها الأشراف من قومه والأمراء، وعليهم أقبية الديباج مرصعة بالذهب. {كَذَلِكَ} وهو مصدر تشبيهي أي أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفناه، أو وصف لمقام أي وأخرجناهم من مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم أو خبر مبتدأ محذوف أي إخراجنا كما وصفنا. {وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ} أي جعلناهم متملكين لتلك النعم بعد هلاك فرعون وقومه. {فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ} أي فجعلوا أنفسهم تابعة لبني إسرائيل وقت طلوع الشمس.

وقرىء «فاتبعوهم» أي فلحقوهم داخلين في وقت الشروق. {فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ} أي رأى كل واحد من جمع موسى وجمع فرعون الآخر. وقرىء «تراءت الفئتان». {قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ} بنو إسرائيل وغيرهم {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ} أي لملحقون. وقرىء «لمدّركون» بتشديد الدال وكسر الراء أي لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد.

{قَالَ} موسى لهم: {كَلاَّ} أي ارتدعوا عن ذلك التوهم، أو حقاً لن يدركونا، لأن الله وعدنا الخلاص منهم. {إِنَّ مَعِىَ رَبِّى} بالنصرة {سَيَهْدِينِ} أي يدلني على طريق النجاة منهم ألبتة.

روي أن رجلاً مؤمناً من آل فرعون يكتم إيمانه كان يدي موسى عليه السلام فقال: يا كليم الله أين أمرت؟ قال: ههنا فحرك فرسه بلجامه حتى طار الزبد من شدقه، ثم أقحمه البحر، فارتسب في الماء، وذهب القوم يصنعون مثل ذلك، فلم يقدروا، فأوحى الله إليه بضرب البحر بعصاه، فإذا الرجل واقف على فرسه ولم يبتل سرجه وذلك قوله تعالى: {فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ} فضربه {فَٱنفَلَقَ} أي انشق بقدرة الله تعالى فصار اثني عشر فرقاً بعدد الأسباط بينهن مسالك. {فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ} حاصل بالانفلاق {كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ} أي كالجبل المرتفع في السماء فدخلوا في شعاب تلك الفرق، كل سبط في شعيب منها فقال كل سبط: قتل أصحابنا، فعند ذلك دعا موسى ربه، فجعل في تلك الجدارن المائية مناظر كالكوى، حتى نظر بعضهم إلى بعض على أرض يابسة {وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلآخَرِينَ} أي قربنا في موضع انفلاق البحر قوم فرعون حتى دخلوا عقب قوم موسى مداخلهم. وعن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين قوم فرعون يقول لبني إسرائيل ليلحق آخركم بأولكم، ويقول للقبط: رويدكم ليلحق آخركم أولكم. وقيل: وقربناهم إلى الموت لأنهم قربوا من أجلهم في ذلك الوقت. وقيل: المعنى: وحبسنا فرعون وقومه في الضبابة عند طلبهم موسى بأن أظلمنا عليهم الدنيا بسحابة وقفت عليهم فوقفوا حيارى.

وقرىء و «أزلقنا» بالقاف أي أزللنا أقدامهم. والمعنى: أذهبنا عزهم، {وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ} من قومه وغيرهم {أَجْمَعِينَ} بحفظ البحر على انفلاقه اثني عشر فرقاً إلى أن عبروا إلى البر {ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلآخَرِينَ} بإطباق البحر عليهم لما تكامل دخولهم البحر. قيل: هذا البحر بحر القلزم وقيل: بحر إسافٍ وهو بحر وراء مصر. {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي الذي حدث في البحر {لأَيَةً} أي عبرة عجيبة دالة على قدرته تعالى، وذلك أن الله تعالى أراد أن تكون الآية متعلقة بفعل موسى وإلا فضرب العصا ليس بفارق البحر، ولا معيناً على ذلك بذاته بل بما اقترن به من اختراع الله تعالى {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} ف «كان» زائدة على رأي سيبويه، أي وما أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش مؤمنين، لأنهم لا يتدبرون في حكايته صلى الله

عليه وسلم لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد، ويجـوز أن يجعـل «كان» بمعنى صار، أي وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا مـن الآية العظيمة الموجبة للإيمان، {وَإِنَّ رَبَّكَ} يا أكـرم الرسـل {لَهُـوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيـمُ}، أي لهـو القـادر علـى إهلاك المكـذبين إيـاك بعـد مشاهدة هذه الآية العظيمة مـن طريـق الـوحي، وهـو المبـالغ فـي رحمـة عبـاده ولـذلك لا يعجـل عقـوبتهم بعـدم إيمـانهم مـع كمـال استحقاقهم لـذلك. {وَٱتْـلُ عَلَيْهِـمْ} أي كفـار مكـة {نَبَـأَ إِبْرٰهِيـمَ} والفعل معطوف على الفعل المقدر العامـل فـي «إذ نـادى» الـخ. {إِذْ قَالَ لأَبِيهِ} آزر {وَقَـوْمِهِ} ليريهـم أن مـا يعبـدونه ليـس ممـن يستحق العبادة في شيء ف «إذ» ظرف للنبـأ. {مَـا تَعْبُـدُونَ} أي أيّ شيء تعبـدونه؟ {قَـالُواْ نَعْبُـدُ أَصْـنَاماً فَنَظَـلُّ لَهَـا عَٰكِفِيـنَ} أي فنصير مديمين على عبادتها وإنما ذكـروا هـذه الزيـادة إظهـاراً لمـا في نفوسهم من الابتهـاج بعبـادة الأصـنام. {قَـالَ} إبراهيـم منبهـاً على فساد مذهبهم: {هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ} أي هل يسـمعون دعاءكم حين دعوتموهم وهل يجيبونه؟ وقرىء «هـل يسـمعونكم» بضم الياء وكسر الميم أي هل يسمعونكم جواباً عـن دعـائكم، {أَوْ يَنفَعُونَكُمْ} في معايشكم بسـبب عبـادتكم لهـا {أَوْ يَضُـرُّونَ} فـي معايشكم بترككم لعبادتها إذ لابد للعبادة من جلب نفع أو دفع ضـر. {قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ} أي فعند هذه الحجة القوية لم يجد أبوه وقومه ما يدفعون به هذه الحجة فعدلوا إلى قولهم: ما علمنا منهم ما ذكر من الأمور، بل وجدنا آباءنا يعبدون مثـل عبادتنـا فاقتدينا بهم. وهذا مـن أقـوى الـدلائل علـى فسـاد التقليـد، وعلـى وجوب الاستدلال.

{قَالَ} إبراهيـم: {أَفَرَءَيْتُـمْ مَّـا كُنْتُـمْ تَعْبُـدُونَأَنتُمْ وَءَابَـآؤُكُمُ ٱلأَقْـدَمُونَ} أي أتـأملتم فعلمتـم مـا كنتـم تعبـدونه حـق العلـم، أو أخبروني ما كنتم تعبدون هل هو حقيق بالعبادة أو لا؟ وهذا استهزاء بعبدة الأصـنام. فَـإِنَّهُمْ عَـدُوٌّ لِّـى إِلاَّ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِيـنَ} فالاسـتثناء إمـا منقطع فالمعنى: فاعلموا أن معبودكم عدو لي لا أعبدهم لكـن رب العالمين فأعبده. أو متصل فالمعنى: فـإن كـل معبـود عـدو لـي إلا رب العالمين فإنه ليس بعدوي بل هو وليي ومعبودي، وصوَّر سيدنا إبراهيم الأمر في نفسـه تعريضـاً بهـم فـالمعنى إنـي تفكـرت فـي أمري فرأيـت عبـادتي للأصـنام عبـادة للعـدو لأن مـن يغـري علـى عبادتها هو الشيطان، فإنه أعدى عـدو الإنسـان فاجتنبتهـا. وأراهـم سيدنا إبراهيم أن تلك الكلمة نصيحة نصح بهـا نفسـه فـإذا تفكـروا قالوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح بـه نفسـه فيكـون ذلـك أدعـى للقبول وأبعث إلى الاستماع منه، فالاستثناء إمـا منقطـع فـالمعنى:

فاعلموا أن معبودكم عدو لي لا أعبدهم لكن رب العالمين فأعبده. أو متصل فالمعنى: فإن كل معبود عدو لي إلا رب العالمين فإنه ليس بعدوي بل هو وليي ومعبودي، وصوَّر سيدنا إبراهيم الأمر في نفسه تعريضاً بهم فالمعنى إني تفكرت في أمري فرأيت عبادتي للأصنام عبادة للعدو لأن من يغري على عبادتها هو الشيطان، فإنه أعدى عدو الإنسان فاجتنبتها. وأراهم سيدنا إبراهيم أن تلك الكلمة نصيحة نصح بها نفسه فإذا تفكروا قالوا: ما نصحنا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه فيكون ذلك أدعى للقبول وأبعث إلى الاستماع منه {ٱلَّذِى خَلَقَنِى} من النطفة على هيئة التصوير، {فَهُوَ يَهْدِينِ} إلى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولمحة {وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ} أي يرزقني بكل منافع الرزق {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} وأكثر أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك. {وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى} في الدنيا بقبض روحي {ثُمَّ يُحْيِينِ} يوم القيامة للمجازاة، {وَٱلَّذِىۤ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى} بترك الأولى {يَوْمَ ٱلدِّينِ} أي الجزاء. روي أن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه لأنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين». واستغفار الأنبياء تواضع منهم لربهم، وتعليم لأممهم ليكونوا على حذر، ثم ذكر الله تعالى مناجاة سيدنا إبراهيم بقوله: {رَبِّ هَبْ لِى حُكْماً} أي كمالاً في العمل، {وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ} أي الأنبياء المرسلين في درجات الجنة أي اجمع بيني وبينهم في الجنة، {وَ ٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلآخِرِينَ} أي اجعل لي جاهاً وذكراً جميلاً باقياً إلى يوم الدين، فإن من صار ممدوحاً بين الناس بسبب ما عنده من الفضائل يصير داعياً لغيره إلى اكتساب مثل تلك الفضائل، فيكون له مثل أجورهم، أو اجعل من ذريتي في آخر الزمان من يكون داعياً إلى الله تعالى، وقد أجاب الله دعاءه فما من أمة إلا وهي تثني عليه، وجعله الله شجرة فرع الله منها الأنبياء، {وَ ٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ} أي اجعلني بعض الذين يرثون جنة النعيم، وهذا إشارة إلى أن الجنة لا تنال إلا بكرمه تعالى {وَ ٱغْفِرْ لأَبِى} أي اهده إلى الإيمان {إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ} من طريق الحق {وَلاَ تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ} أي ولا تجعلني من الذليلين، ولا من المستحيين يوم يبعث العباد من القبور فخزى كل واحد على حسب مقامه فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين كما أن درجات الأبرار دركات المقربين {يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} فيوم بدل من يوم قبله وإلا من أتى

مفعول لينفع أي لا ينفع مال وإن كان مصروفاً في الدنيا إلى وجوه الخيرات ولا بنون وإن كانوا صلحاء إلا أحداً سلم قلبه عن الكفر والأخلاق الرذيلة فينفعه ماله الذي أنفقه في الخير وولده الصالح بدعائه، وأما الذنوب فلا يسلم منها أحد {وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ} أي ويوم قربت الجنة للمتقين عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها من الموقف، فيبتهجون بأنهم المحشورون إليها {وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} أي ويوم جعلت النار ظاهرة للضالين عن طريق الإيمان والتقوى بحيث يرونها مع ما فيها فيتحرنون على أنهم المسوقون إليها. {وَقِيلَ لَهُمْ} على سبيل التوبيخ: {أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَمِن دُونِ ٱللَّهِ}؟ أي أين آلهتم الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شفعاؤكم في هذا الموقف {هَلْ يَنصُرُونَكُمْ} بدفع عذاب عنكم {أَوْ يَنتَصِرُونَ} أي أو ينفعون أنفسهم بامتناعهم من العذاب فإنهم وآلهتهم وقود النار، وهو قوله تعالى: {فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَ ٱلْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} أي فألقي في الجحيم الأصنام والذين عبدوها، والذين أضلوهم على وجوههم مرة بعد أخرى إلى أن يستقروا في قعرها، فيجتمعون في العذاب لاجتماعهم فيما يوجبه.

{قَالُواْ} أي العابدون معترفين بخطئهم في انهماكهم في الضلالة، {وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ} أي والحال أنهم في الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم: {تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} وهذا معمول ل «قالوا»، وجملة «وهم فيها» الخ في محل نصب على الحال «وإن» مخففة من الثقيلة قد حذف اسمها الذي هو ضمير الشأن، واللام فارقة بينها وبين النافية أي إن الشأن كنا في ضلال واضح لإخفاء فيه {إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} ظرف لكونهم في ضلال مبين أي تالله لقد كنا في غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا إياكم أيها الأصنام برب العالمين الذي أنتم أذل مخلوقاته في استحقاق العبادة، {وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلاَّ ٱلْمُجْرِمُونَ} أي الذين دعونا إلى عبادة الأصنام من رؤسائنا وكبرائنا {فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ} كما نرى المؤمنين أن لهم شفعاء من الملائكة والنبيين، {وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ} أي خالص مع موافقة الدين كما نرى أن المؤمنين أصدقاء لأنه لا يتصادق في الآخرة إلا المؤمنون، وأما أهل النار فبينهم التعادي والتباغض، وفي بعض الأخبار يجيء يوم القيامة عبد يحاسب فيستوي حسناته وسيئاته فيقول الله تعالى: عبدي بقيت لك حسنة إن كنت تريد أن أدخلك الجنة انظر واطلب من الناس لعل واحداً يهب منك حسنة واحدة، فيأتي العبد في الصفوف ويطلب من أبيه، ثم من أمه، ثم من أصحابه فلا يجيبه أحد وكل يقول له: أنا اليوم

مفتقر إلى حسنة واحدة فيرجع إلى مكانه فيسأله الله تعالى ويقول: ماذا جئت به؟ فيقول: يا رب لم يعطني أحد حسنة واحدة من حسناته فيقول الله تعالى: يا عبدي ألم يكن لك صديق في فيذكر العبد ويقول فلان كان صديقاً لي فيدله الله عليه فيأتيه فيكلمه في حاجته فيقول: بلى لي عبادات كثيرة اقبلها مني فقد وهبتها منك، فيجيء هذا العبد إلى موضعه ويخبر بذلك ربه فيقول الله تعالى: قد قبلتها منه ولم أنقص من حقه شيئاً وقد غفرت لك وله. {فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً} أي فليت لنا رجعة إلى الدنيا {فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} منصوب في جواب التمني {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي فيما ذكر من نبأ إبراهيم المشتمل على بيان بطلان ما عليه أهل مكة من عبادة الأصنام {لأَيَةً} أي لعظة لمن أراد أن يعتبر وحجة لمن أراد أن يستبصر بها {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} أي وما أكثر هؤلاء الذين نتلو عليهم النبأ مؤمنين، بل هم مصرون على الكفر والضلال {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ} أي لهو القادر على تعجيل العقوبة لقومك، ولكنه يمهلهم بحكم رحمته الواسعة ليؤمن بعض منهم أو من ذرياتهم {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ} بتكذيبهم نوحاً فمن كذب واحداً من الرسل فقد كذب الكل، لأن الأخير جاء بما جاء به الأول من التوحيد وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة، {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ} في النسب {نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ} الله حيث تعبدون غيره {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ} من الله تعالى {أَمِينٌ} أي مشهور بالأمانة فيما بينكم فكيف تتهموني اليوم؟ {فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ} فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى {وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} أي وما أسألكم على هذا النصح أجرة {إِنْ أَجْرِىَ} أي ما ثوابي في دعائي لكم {إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}.

وقرأ نافع وأبو عمرو، وابن عامر وحفص بفتح الياء في «أجري» في المواضع الخمسة في هذه السورة. والباقون بالسكون. {فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ} أي اتبعوا وصيتي، وكرر الأمر بالتقوى، لأن المعنى في الأزل ألا تتقون مخالفتي وأنا رسول الله. وفي الثاني ألا تتقون مخالفتي ولست آخذاً منكم أجرة. فلا تكرار فيه لأن المعنى مختلف.

{ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلأَرْذَلُونَ} والواو للحال أي أنصدقك يا نوح لأجل قولك هذا؟ والحال أنه قد اتبعك فقراء الناس وضعفاؤهم من النسب قيل: هم من أهل الصناعات الخسيسة كالحجامة والحياكة.

وقرأ يعقوب و «أتباعك الأرذلون» فهو مبتدأ وخبر والجملة حال والاتباع جمع تابع أو تبع كاشهادوا بطال {قَالَ} نوح: {وَمَا عِلْمِى

بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} وهذا جواب عما أشير إليه من قولهم: إنهم لم يؤمنوا عن نظر وإخلاص عمل وإنما آمنوا بالهوى والطمع في العزة والمال، وكان زائدة أي ما وظيفتي إلا اعتبار الظواهر دون التفتيش عن بواطنهم ولم أكلف العلم بأعمالهم، وإنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان فالاعتبار بالإيمان لا بالصنائع {إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّى} أي ما محاسبة أعمالهم وبواطنهم إلا على ربي فإنه مطلع على السرائر {لَوْ تَشْعُرُونَ} أي لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك فلم تقولوا ما قلتم. {وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ} بأن لا أقبل الإيمان منهم للطمع في إيمانكم {إِنْ أَنَآ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} أي ما أنا إلا مبعوث لإنذاركم بالبرهان الواضح ولزجر المكلفين عن الكفر والمعاصي سواء كانوا من الأعزاء أو من الأراذل وقد فعلت وليس علي استرضاء بعضكم بطرد الفقراء لأجل اتباع الأغنياء. {قَالُواْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يٰنُوحُ} عن مقالتك {لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ} أي من المقتولين كما قتلنا من آمن بك من الغرباء.

وقال الكلبي ومقاتل: أي من المقتولين بالحجارة. وقال الضحاك: أي من المشتومين {قَالَ} نوح عند حصول اليأس من فلاحهم شاكياً إلى الله تعالى: {رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ} في الرسالة وقتلوا من آمن بي من الغرباء {فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً} أي احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا، وافتح باباً من أبواب عدلك على مستحقيه بأن تنزل العقوبة بهم، وباباً من أبواب فضلك على مستحقيه {وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} مما تعذب به الكافرين، وكان المؤمنين ثمانين أربعين من الرجال وأربعين من النساء {فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ} أي حال كونهم في السفينة الموقرة بالناس والحيوان والطير وبما لا بد لهم منه {ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَٰقِينَ} أي أغرقنا بعد ركوب نوح والمؤمنين على السفينة والباقين على الأرض من قومه {إِنَّ فِى ذَٰلِكَ} أي الإنجاء والإهلاك {لاَيَةً} أي لعبرة لمن بعدهم، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ} أي ما أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم من النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنين، {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ} أي لهو القادر على تعجيل العقوبة لقومك، ولكنه يمهلهم لأنه رحيم ذو حكمة، {كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ} أي كذبت قوم هود هوداً وسائر الرسل الذين ذكرهم هود، فعاد اسم قبيلة هود سميت باسم أبيها الأعلى، وكان من نسل سام بن نوح. {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ} في النسب نبيهم {هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ} الله، فتفعلون ما تفعلون؟ {إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} على الرسالة {فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ} فيما أمرتكم به من الإيمان والتوبة {وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ} أي الدعاء إلى التوحيد {مِنْ

أَجْـرٍ إِنْ أَجْـرِيَ إِلاَّ عَلَـىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِيـنَ}، وكـان هـود تـاجراً جميـل الصورة، يشبه آدم وعاش من العمر أربعمائة وأربعاً وسـتين سـنة {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ} أي أتبنون بكل مكان مرتفـع علامـة تعبثون فيها بمن يمر بكـم. وقيـل: إنهـم كـانوا يبنـون فـي الأمـاكن المرتفعـة ليعـرف بـذلك غنـاهم تفـاخراً {وَتَتَّخِـذُونَ مَصَـانِعَ} أي حيضاناً تجمعون فيها ماء المطر، فهي من نـوع الصـهاريج. وقيـل: القصـور {لَعَلَّكُـمْ تَخْلُـدُونَ} أي مـؤملين أن تخلـدوا فـي الـدنيا لإنكاركم البعث فلعل للترجي وهو للتوبيخ، وقيـل: للتعليـل ويؤيـده قراءة عبدالله «كي تخلدون» وقيل: معناها التشبيه ويؤيده ما فـي مصحف أبيّ «كأنكم تخلدون» وقرىء «كأنكم خالـدون». وقرىء بضـم التـاء مـع تخفيـف اللام وتشـديدها {وَإِذَا بَطَشْـتُمْ بَطَشْـتُمْ جَبَّارِينَ} أي إذا أخذتم بالعقوبة على أحد بأن ضربتم أحـداً بسـوط أو قتلتم بالسيف فعلتم فعل الغاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب، ولا نظر في العاقبة. والحاصل أنهم أحبـوا العلـو وبقـاء العلـو والتفـرد بالعلو، وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كـل خطيئـة وعنـوان كل معصية {فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} بـترك هـذه الأفعـال {وَأَطِيعُـونِ} فيمـا أدعوكم إليه فإنه أنفع لكم.

{وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ}، أي واخشوا الذي أعطاكم ما لا خفاء فيه عليكم من أنواع النعم الحاصـلة لكـم، ثـم بيـن هـود عليه السلام ما أعطاهم الله تعالى فقال: {أَمَـدَّكُمْ بِـأَنْعَٰمٍ وَبَنِيـنَ * وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ} فـأنتم تنتفعـون بـذلك كلـه فلا تغفلـوا عـن تقييـده بالشـكر، {إِنِّيٓ أَخَـافُ عَلَيْكُـمْ} إن لـم تقومـوا بشـكر هـذه النعـم {عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} في الدنيا والآخرة فإن كفران النعـم مسـتتبع للعذاب. {قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ} فإنا لـن نرجـع عمـا نحـن فيـه لأجـل وعظـك إيانـا {إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ خُلُـقُ ٱلأَوَّلِينَ}.

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة بضم الخاء واللام، أي ما هذا الذي جئنا به من الكذب إلا عادة الأولين كانوا يسـطرونه أو مـا هذا الذي نحن عليه من الدين إلا عادة آبائنا الأولين يدينون به ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذي نحن عليـه مـن المـوت والحيـاة والبلاء والعافيـة، ومـن اعتقـاد أن لا بعـث ولا حسـاب، ولا جـزاء إلا عـادة قديمة لم يزل الناس عليها من قديم الدهر.

وقرأ الباقون بفتح الخاء وسكون اللام، أي ما هذا الذي جئت به إلا كذب الأولين، وما خلقنا هذا إلا خلق الأمم الماضية نحيا كحياتهم ونموت كمماتهم ولا بعث ولا حساب {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} على مـا نحن عليه من الأعمال كما تقول {فَكَذَّبُوهُ} فـي وعيـده بالعـذاب،

{فَأَهْلَكْنٰهُمْ} بريح باردة شديدة الصوت {إِنَّ فِي ذَلِكَ} الإهلاك {لأَيَةً} أي لعبرة لمن بعدهم، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم} أي وما صار أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم من قوم محمد صلى الله عليه وسلم {مُّؤْمِنِينَوَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ} أي الغالب على ما يريده من انتقام المكذبين {ٱلرَّحِيمُ} أي المبالغ في الرحمة، ولذلك يمهلهم بعدم إيمانهم لحكمة يعلمها {كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ} أي كذبت جماعة صالح صالحاً. فثمود اسم قبيلة صالح سميت باسم أبيها وهو ثمود جد صالح، وعاش صالح من العمر مائتين وثمانين سنة وبينه وبين هود مائة سنة، {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ} في نسب نبيهم {صٰلِحٌ أَلا تَتَّقُونَ} الله {إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ} من الله {أَمِينٌ} في جميع ما أرسلت به إليكم منه {فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ} أي اتبعوا ديني وأمري، {وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ} أي على ما جئتكم به {مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعٰلَمِينَ} وليعلم كافة الناس أن من عمل لله لا ينبغي أن يطلب من غير الله، وينبغي للعلماء أن يتأدبوا بآداب الأنبياء فلا يطلبوا من الناس شيئاً في بث علومهم، ولا ينتفعوا منهم بالتذكير لهم، ومن انتفع من المستمعين من الدين فلا بركة فيما يأخذ منهم. {أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَاهُنَآ ءَامِنِينَ} أي أتظنون أنكم تتركون في الدنيا آمنين من العذاب، وأنه لادار للمجازاة أي لا ينبغي لكم أن تعتقدوا أنكم تتقلبون في النعم التي في دياركم آمنين من الزوال والعذاب فلا تطمعوا في ذلك، ثم فسر المكان بقوله: {فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} أي لطيف لين والطلع ثمر النخل في أول ما يطلع وبعده يسمى خلالاً، ثم بلحاً، ثم بسراً، ثم رطباً، ثم تمراً. {وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً فٰرِهِينَ}.

وقرأ ابن عامر والكوفيون بألف بعد الفاء أي ماهرين في العمل ويعملون بنشاط وطيب قلب. وقرأ الباقون بغير ألف أي متكبرين لا للحاجة، فالغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة. وأما الغالب على قوم هود فهو اللذات الحالية وهي طلب الاستعلاء والتجبر {فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ} في كل ما أمرتكم به {وَلاَ تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ} أي المستكثرين من لذات الدنيا وشهواتها بل اكتفوا واقتصروا منها بقدر الكفاف، {ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ}. وهذا بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شيء من الصلاح، فإن حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح.

{قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ} أي ممن يأكلون الطعام، ويشربون الشراب كما قال الفراء المسحر من له جوف، {مَآ أَنتَ

إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا} فكيف تكون نبياً {فَأْتِ بِأايَةٍ} أي بعلامة تدل على صدقك {إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّدِقِينَ} في دعواك أنك رسول إلينا فقال لهم صالح: ما تريدون؟ قالوا: نريد ناقة عشراء من هذه الصخرة فتلد سقباً فأخذ صالح يتفكر. فقال له جبريل: صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل، فخرجت الناقة، وبركت بين أيديهم ونتجت سبقاً مثلها في العظم. وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه رأيت مبركها فإذا هو ستون ذراعاً في ستين ذراعاً، {قَالَ} لهم صالح: {هَـٰذِهِ نَاقَةٌ} دالة على نبوتي أخرجها ربي من الصخرة كما اقترحتم {لَّهَا شِرْبٌ} أي نصيب من الماء تشرب منه يوماً {وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} أي ولكم نصيب من الماء تشربون منه يوماً ولا تزاحموا على شربها {وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوۤءٍ} كضرب وعقر {فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍفَعَقَرُوهَا}. روي أن مصدعاً ألجأها إلى مضيق، فرماها بسهم، فسقطت، ثم ضربها قدار بالسيف في ساقيها.

قال مقاتل وغيره: فخرج في أبدانها خراج مثل الحمص فكان في اليوم الأول أحمر، ثم صار في الغد أصفر، ثم صار في الثالث أسود، وكان عقر الناقة يوم الأربعاء وهلاكهم يوم الأحد، انفقعت فيه تلك الخراجات، وصاح عليهم جبريل صيحة فماتوا بالأمرين، وكان ذلك ضحوة {فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ} أي فصاروا نادمين على قتلها ندم الخائفين من العذاب العاجل، أو ندم التائبين عند معاينة العذاب فلم ينفعهم الندم {فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ} الموعود على عقرها {إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي في أخذهم بالعذاب {لأَيَةً} أي لعبرة لمن بعدهم. {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم} أي أكثر هؤلاء الذين سمعوا القصة من قريش {مُّؤْمِنِينَوَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ} حيث لا يعالجهم بالعذاب {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ} فمن كذب رسولاً فقد كذب الكل، {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ} في البلد لا في النسب نبيهم {لُوطٌ} فإن لوطاً ابن أخي إبراهيم، وهما من بلاد المشرق من أرض بابل فلوط كان مجاوراً لهم في قريتهم، {أَلا تَتَّقُونَ} عبادة غير الله {إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ} من الله {أَمِينٌ} على الرسالة {فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ} فيما أمركم به {وَأَطِيعُونِ} أي اتبعوا أمري {وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ} أي الدعاء إلى الله تعالى {مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ} أي جامع الخلق ومربيهم، {أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ} أي أتأتون الذكران من أولاد آدم مع كون النساء أليق بالاستمتاع، {وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ} أي وتتركون إناثاً أباحها لكم ربكم هي أزواجكم لأجل استمتاعكم، أو وتتركون فروجاً أحل لكم ربكم حال كونها بعض أزواجكم، {بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ

عَـادُونَ} أي متجـاوزون الحـد فـي جميـع المعاصـي بإتيـانكم هـذه الفاحشـة، متجـاوزون عـن حـد الشـهوة حيـث زدتـم علـى سـائر الحيوانات. {قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يٰلُوطُ} عن تقبيح أمرنا {لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ} أي من جملة من أخرجناه مـن بلـدنا سـذوم. {قَـالَ} لوط: {إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِّنَ ٱلْقَٰلِينَ} أي إني لعملكـم الخـبيث لمبغـض من المبغضين غاية البغض فلا أقف عن الإنكار عليه بالإبعاد عنكـم، ثـم تـوجه لـوط إلـى اللـه تعـالى قـائلاً: {رَبِّ نَّجِنِـى وَأَهْلِـى مِمَّـا يَعْمَلُونَ} أي من شؤم عملهم {فَنَجَّيْنَٰـهُ وَأَهْلَـهُ} أي بنـتيه وامرأتـه المؤمنـة ومـن اتبعـه فـي الـدين {أَجْمَعِيـنَ} ممـا عـذبناهم بـه بإخراجهم من بينهم عند قرب حلول العذاب بهم {إِلاَّ عَجُوزاً} هـي امرأة لوط المنافقة {فِى ٱلْغَٰبِرِينَ} أي إلا عجوزاً مقدار كونها مـن الباقين في العذاب، لأنهـا كـانت راضـية بفعـل القـوم وقـد أصـابها الحجر في الطريق {ثُمَّ دَمَّرْنَـا ٱلْأَخَرِيـنَ} أي أهلكنـا المتـأخر عـن اتباع لوط بقلب قراهـم عليهـم وجعـل أعلاهـا سـافلها، {وَأَمْطَرْنَـا عَلَيْهِـم} أي علـى مـن كـان منهـم خـارج القـرى لسـفر أو غيـره {مَّطَراً} غير معتاد حجارة مـن السـماء فـأهلكتهم، {فَسَـآءَ مَطَـرُ ٱلْمُنـذَرِينَ} أي فـبئس مطـر جنـس المنـذرين مطـر قـوم لـوط بالحجارة،

{إِنَّ فِى ذَلِكَ} أي فيما فعلنا بهم {لاّيَةً} أي دلالة على عزة الله وعظمته {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم} أي أكثر من تلوث عليهـم القصـة {مُّؤْمِنِينَ} فإن أكثر الخلق لئام وكرامهم قليلون كما قال الشاعر: فتعيّرنا أنَّا قليلٌ عديدنا فقلت لها أن الكـرام قليـل {وَإِنَّ رَبَّـكَ لَهُـوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ} فلا يهتدي إلـى عـديم النظيـر الأذلاء ويهتـدي إليـه برحمتـه الفائضـة مـن كـانت همتـه عاليـة {كَـذَّبَ أَصْـحَٰبُ لْأَيْكَـةِ ٱلْمُرْسَلِينَ}، أي كذب أصـحاب شـجر ملتـف بقـرب مـدين شـعيباً، وجملة المرسلين.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر في هذه السورة وفي «ص» خاصة: «ليكة» بلام واحدة وفتح التـاء وهـو غيـر منصـرف للعلميـة والتأنيث واللام جـزء الكلمـة، وهـو اسـم البلـدة لأصـحاب الحجـر. وقال أبو عبيدة: إن ليكة اسم للقرية التي كانوا عليها والأيكة اسـم للبلاد كلها {إِذْ قَـالَ لَهُـمْ} نـبيهم {شُـعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُـونَ} اللـه الـذي تفضل عليكم بنعمه {إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ} من عند الله فهو أمرني أن أقول لكم ذلك. {أَمِينٌ} لا خيانة عنـدي {فَـٱتَّقُواْ ٱللَّـهَ} المحسـن إليكم بهذه الغيضة وغيرها {وَأَطِيعُونِ} لما ثبـت مـن نصـحي لكـم {وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ} أي على دعائي لكم إلـى الإيمـان بـالله تعـالى {مِـنْ أَجْـرٍ إِنْ أَجْـرِىَ إِلاَّ عَلَـىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِيـنَ} أي المحسـن إلـى

الخلائق كلهم، فإني لا أرجو أحداً سواه. {أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ} أي أتموه إذا كلتم للناس كما توفونه إذا أخذتم منهم {وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ} أي الناقصين لحقوق الناس. {وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ} أي بالميزان العدل.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص بكسر القاف. والباقون بالضم {وَلاَ تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ} أي لا تنقصوا شيئاً من حقوق الناس في كيل ووزن أو غير ذلك {وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى ٱلأَرْضِ مُفْسِدِينَ} ولا تعملوا المعاصي في الأرض بقطع الطريق والغَارة وإهلاك الزرع والدعاء إلى غير عبادة الله، فإنهم كانوا يفعلون ذلك. {وَ ٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَ ٱلْجِبِلَّةَ ٱلأَوَّلِينَ} أي الخلائق الماضين الذين كانوا على خلقة عظيمة وطبيعة غليظة، كقوم هود وقوم لوط. وقرأ العامة الجبلة على كسر الجيم والباء وتشديد اللام وأبو حصين والأعمش والحسن بضمها وتشديد اللام، والسلمي بفتح الجيم أو كسرها مع سكون الباء. {قَالُواْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ} أي المجوفين مثلنا لست بملك {وَمَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا} تأكل وتشرب كما نفعل، فلا وجه لتخصيصك بالرسالة {وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ} ف «إن» مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف أي وأنا نظنك لمن الكاذبين في دعواك أنك رسول من الله ثم إن شعيباً كان هددهم بالعذاب أن استمروا على التكذيب فقالوا: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ} أي فأسقط علينا قطعاً من السحاب {إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ} في دعواك.

وقرأ حفص بفتح السين. والباقون وإنما طلبوا ذلك لتصميمهم على التكذيب واستبعادهم وقوعه فعند ذلك فوض شعيب عليه السلام أمرهم إلى الله تعالى ف {قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} وبما تستحقون بسببه من العذاب. {فَكَذَّبُوهُ} أي أصروا على تكذيبه بالرسالة {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ} وفي إضافة العذاب إلى يوم دون الظلة إعلام بأن لهم يومئذ عذاباً آخر غير عذاب السحاب كما روي أن الله تعالى فتح عليه باباً من أبواب جهنم وأرسل عليهم هدة وحراً شديداً مع سكون الريح سبعة أيام بلياليها فأخذ بأنفاسهم فدخلوا بيوتهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فأنضجهم الحر فخرجوا هراباً، فأرسل الله تعالى سحابة فأظلتهم فوجدوا لها برداً وروحاً وريحاً طيبة، فنادى بعضهم بعضاً فلما اجتمعوا تحت السحابة ألهبها الله عليهم ناراً ورجفت بهم الأرض فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي فصاروا رماداً، {إِنَّهُ} أي ذلك العذاب {كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} في الشدة والهول.

قال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أمتين أصحاب الأيكة، وأهل مدين فأهلكت أصحاب الأيكة بالظلة وأهل مدين بصيحة جبريل عليه السلام،

{إِنَّ فِي ذَلِكَ} أي فيما فعلنا بهم {لآيَةً} أي دلالة واضحة على صدق الرسل، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم} أي أكثر قومك {مُّؤْمِنِينَ} مع أنك قد أتيت قومك بما لا يكون معه شك لو لم يكن لهم معرفة بك قبل ذلك، فكيف وهم عارفون بأنك كنت قبل الرسالة أصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة وأغزرهم عقلاً، وأبعدهم عن كل ذي دنس؟ {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ} بالإمهال.

وهذا آخر القصص السبع التي ذكرها الله تعالى تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتهديداً للمكذبين له وكل قصة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول، قد أتاهم من الله تعالى، وما كان أكثرهم مؤمنين بعدما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة بأن لا يعتبروا بما في كل واحدة منها من الدواعي إلى الإيمان، والزواجر عن الكفر والطغيان وبأن لا يتأملوا في شأن الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ما هي عليه مع علمهم بأنه صلى الله عليه وسلم لم يسمع شيئاً منها من أحد أصلاً، وصاروا كأنهم لم يسمعوا شيئاً يزجرهم عن الكفر والضلال واستمروا على ذلك {وَإِنَّهُ} أي القرآن الذي من جملته هذه القصص {لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} أي منزل من خالق المخلوقين فليس بشعر ولا أساطير الأولين، ولا غير ذلك مما قالوه فيه {نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ}.

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحفص بتخفيف «الزاي»، ورفع «الروح». والباقون بتشديد «الزاي» ونصب «الروح»، وذكر الله تعالى دليل التنزيل بقوله تعالى: {نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ} إلخ، فالروح: هو جبريل عليه السلام سمي بالروح، لأنه به نجاة الخلق في باب الدين، فهو كالروح الذي تثبت معه الحياة. وبالأمين، لأنه مؤتمن على ما يؤديه إلى الأنبياء عليهم السلام، {عَلَىٰ قَلْبِكَ} أي جعل الله تعالى جبريل نازلاً بالقرآن على قدر حفظك أي فهمك القرآن وأثبته في قلبك إثبات ما لا ينسى. وهذا تنبيه على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أن الإخبار عن هذه القصص ممن لم يتعلمها لا يكون إلا وحياً من الله تعالى {لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَبِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ} أي أنزل الله تعالى بالقرآن لتنذرهم بما فيه من العقوبات الهائلة، وكان إنزاله بلغة عربية واضحة المعنى لئلا يبقى لهم عذر ما له منه مناص لو نزله باللسان الأعجمي لقالوا له صلى الله عليه وسلم: ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الإنذار به وقوله: {لِتَكُونَ} متعلق بنزل. وكذا قوله:

{بسلان} ويجوز أن يكون بدلاً من به، وأما جعله متعلقا بالمنـذرين فيفيد أن غاية الإنزال كونه لله من جملـة المنـذرين باللغـة العربيـة فقط. وهذا لا ينبغي فإن سبب كـونه صـلى اللـه عليـه وسـلم مـن جملة المنذرين مجرد إنزال القرآن عليه صلى اللـه عليـه وسـلم لا إنزاله بخصـوص اللسـان العربـي والـذين أنـذروا باللسـان العربـي خمسة فقـط محمـد وإسـماعيل، وهـود، وصـالح، وشـعيب عليهـم الصلاة والسلام {وَإِنَّـهُ لَفِـى زُبُـرِ ٱلأَوَّلِيـنَ} أي وإن معنـى القـرآن وصفته لفي الكتب المتقدمة، فإن الله تعالى أخبر في كتب الأولين عن القرآن وإنزاله في آخر الزمان والله تعالى بيـن أصـول معـانيه في كتبهم.

{أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِى إِسْرٰءِيلَ}، أي أغفل أهل مكة عن القرآن ولم يكن لهم آية دالة علـى أنـه تنـزل مـن رب العالمين، وأنه في زبر الأولين أن يعرفه علماء بني إسرائيل بنعوته المذكورة في كتبهم، ويعرفوا من أنزل عليه، وكانوا خمسـة: أسـد، وأسد، وابن يامين، وثعلبة، وعبدالله بن سلام فهؤلاء الخمسـة مـن علماء اليهود وقد حسن إسلامهم.

قال ابن عباس: بعث أهل مكة إلى اليهود بالمدينة فسألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن هـذا لزمـانه وإنـا لنجـد نعته في التوراة، فكان ذلك آية على صدقه صلى الله عليه وسـلم. وقرأ ابن عامر «تكن» بالتأنيث ورفع «آية» على أنه اسمها، ولهـم خبرها وأن يعلمه بدل من اسمها، أو على أنه فاعل لهـا ولهـم حـال «وأن يعلمه» بدل من الفاعـل، ولا يجـوز أن يكـون «آيـة» اسـمها «وأن يعلمه» خبرهـا، لأنـه يلـزم عليـه جعـل الاسـم نكـرة والخـبر معرفة. والباقون «يكن» بالتذكير ونصب آية على أنه خبرهـا «وأن يعلمه» اسمها {وَلَوْ نَزَّلْنٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّـا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} أي ولو نزلنا القرآن كما هـو علـى رجـل أعجمـي فقرأه على أهل مكة قراءة صحيحة خارقة للعادة ما كانوا مـؤمنين به مع أن الأعجمي لا يتهم باكتسـابه أصـلاً لفقـد الفصـاحة فيـه ولا باختراعه لكونه ليس بلغته لفـرط عنـادهم، وشـدة شـكيمتهم فـي المكابرة {كَـذَلِكَ سَـلَكْنَاهُ فِـي قُلُـوبِ ٱلْمُجْرِمِيـنَ}، أي مثـل ذلـك الإدخال أدخلنا القرآن في قلوب كفار مكة ففهموا معانيه، وعرفـوا فصاحته من حيث النظم المعجز زمن حيث الإخبار عن الغيب وقـد انضم إليه اتفـاق علمـاء أهـل الكتـب المنزَّلـة قبلـه علـى البشـارة بإنزاله وبعثة من أنزل عليه بأوصافه وكيفمـا فعـل بهـم فلا سـبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من الإنكار {لاَ يُؤْمِنُونَ بِـهِ حَتَّـىٰ يَـرَوُاْ ٱلْعَـذَابَ ٱلأَلِيـمَ} الملجىء للإيمـان بـه، فيؤمنـون حيـن لا ينفعهـم

الإيمان {فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ} بإتيان العذاب {فَيَقُولُواْ} تأسفاً على ما فات من الإيمان {هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ} وهو استفهام طمع في المحال وهو إمهالهم بعد مجيء العذاب، وهم في الآخرة يعلمون أن لا ملجأ لهم لكنهم يذكرون ذلك استرواحاً {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ} أي أيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الأليم، فيستعجلون بعذابنا في الدنيا بقولهم: أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ونحو ذلك. {أَفَرَأَيْتَ} أي أخبرني أيها المخاطب {إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ} في الدنيا بطول الأعمار وطيب المعاش {سِنِينَ} متطاولة {ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ} من العذاب، {مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ} أي أيّ شيء أفادهم كونهم متمتعين ذلك التمتيع المديد من دفع العذاب.

وقرىء «يتمتعون» بسكون الميم {وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ} من القرى المهلكة {إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ} أي رسل قد أنذروا أهلها إلزاماً للحجة {ذِكْرَىٰ} أي لأجل تذكيرهم العواقب، وهو منصوب على أنه مفعول لأجله أو مفعول مطلق منصوب ب «منذرون» لأن التذكرة في معنى الإنذار، أو منصوب بفعل مقدر هو صفة ل «منذرون» أي إلا لها منذرون يذكرونهم ذكرى. ويجوز أن يكون «ذكرى» مفعولاً له علة ل «أهلكنا». والمعنى: وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعدما ألزمناهم الحجة بإرسال المنذرين إليهم ليكون إهلاكهم عبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم.

{وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ} فنهلك قوماً غير ظالمين وقبل الإنذار {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ}. وهذا رد لقول الكفار لم لا يجوز أن يكون هذا القرآن من إلقاء الجن والشياطين إلى محمد على لسانه كسائر ما ينزل على الكهنة من أخبار السماء. {وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} أي أن الشياطين لممنوعون عن الاستماع للوحي كيف لا: ونفوسهم خبيثة ظلمانية شريرة غير مستعدة إلا لقبول ما لا خير فيه أصلاً من فنون الشرور. قال بعضهم: وهذا إشارة إلى أنه ليس للشياطين استعداد تنزيل القرآن ولا قوة حمله، وسمع فهمه، لأنهم خلقوا من النار والقرآن نور قديم فلا يكون للنار المخلوقة قوة حمل النور القديم ألا ترى أن نار الجحيم كيف تستغيث عند مرور المؤمنين عليها، وتقول: جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي فإذا لم يكن لهم استطاعة على حمل القرآن، ولا قوة على سمعه كيف يمكن لهم تنزيله؟ وإن وجد فيهم السمع الذي هو الإدراك لأنهم حرموا الفهم المؤدي للاستجابة لما دعوا إليه.

{فَلاَ تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ} أي فلا تعبد مع الله إلٰهاً غيره {فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ}. قال بعضهم: وهذا يشير إلى أن طلب غير الله من الدنيا والآخرة بتوجه القلب إليه أمارة عذاب الله وهو البعد من الله، فمن يكون أبعد من الله يكون عذابه أشد فكل طالب شيء يكون قريباً إليه بعيداً عما سواه. فطالب الدنيا قريب من الدنيا، بعيد عن الآخرة. وطالب الآخرة قريب من الآخرة بعيد عن الدنيا. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «حسنات الأبرار سيئات المقربين». فالأبرار أهل الجنة، وحسناتهم طلب الجنة والمقربون أهل الله وحسناتهم طلب الله وحده بلا شريك له وهذا الخطاب له صلى الله عليه وسلم. والمقصود غيره كما هو شأن الحكيم إذا أراد أن يؤكد الخطاب لأحد وجهه إلى الرؤساء في الظاهر، ولأنه تعالى أراد أن يتبعه ما يليق بذلك، فلهذا أفرده صلى الله عليه وسلم بالمخاطبة بقوله تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلأَقْرَبِينَ} الأقرب منهم فالأقرب. وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: «يا بني عبد المطلب يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، افتدوا أنفسكم من النار فإني لا أغني عنكم شيئاً»، ثم قال: «يا عائشة بنت أبي بكر، ويا حفصة بنت عمرو، ويا فاطمة بنت محمد، ويا صفية عمة محمد اشترين أنفسكن من النار فإني لا أغني عنكن شيئاً».

وروى محمد بن إسحاق عن علي رضي الله عنه أنه قال. لما نوزلت على النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية دعاني فقال: «يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فاصنع لي صاعاً من طعام، واجعل عليه رجل شاة، واملأ لنا عساً من لبن، ثم اجمع بني المطلب حتى أبلغهم ما أمرت به». ففعلت ما أمرني، ثم دعوتهم إليه وهم يومئذ أربعون رجلاً فيهم أعمامه: أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب. فلما اجتمعوا دعاني بالطعام الذي صنعته، فجئت له، فلما وضعته تناول صلى الله عليه وسلم جذبة من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة، ثم قال: «كلوا باسم الله»، فأكل القوم حتى شبعوا، ثم قال: «اسق القوم». فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعاً فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بادره أبو لهب فقال: سحركم محمد صاحبكمْ فتفرق القوم، فقال: «يا علي، إن هذا الرجل قد سبق إلى ما سمعت من القول» فتفرق القوم قبل أن أكلمهم فأعد لنا الطعام مثل ما صنعت، ففعلت، ثم جمعتهم، ثم دعاني بالطعام، فقدمته، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا وشربوا، ثم تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا بني عبد

المطلب، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيُّكم يوازرني على أمري ويكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟» فأحجم القوم جميعاً عن ذلك الكلام، فقلت: يا رسول الله أنا أكون وزيرك عليه قال: «علي» فأخذ صلى الله عليه وسلم برقبتي ثم قال: «إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا وأطيعوا». فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لعلي وتطيع.

وروى أبو يعلى عن الزبير بن العوام أن قريشاً جاءته فأنذرهم، فسألوه آيات سليمان في الريح وداود في الجبال وعيسى في إحياء الموتى ونحو ذلك. وأن يسير الجبال ويفجر الأنهار، ويجعل الصخرة ذهباً. فأوحى الله تعالى إليه وهم عنده أخبرهم بأن أعطي ما سألوه ولكن إن أراهم كفروا عوجلوا، فاختار صلى الله عليه وسلم الصبر عليهم ليدخلهم الله باب الرحمة. {وَ ٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} أي لين جانبك لهم و «من» للتبيين، لأن من اتبع أعم ممن اتبع لدين أو قرابة أو نسب {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} ولا تبرأ منهم وقل لهم، قولاً بالنصح، لعلهم يرجعون إلى قبول الدعوة منك. والمعنى: فبعد إنذار عشيرتك فتواضع لمن آمن منهم، وتبرأ من عمل من خالفك منهم {وَتَوكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ} أي فوِّض أمرك إلى الذي يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته.

وقرأ نافع وابن عامر «فتوكل» بالفاء على الإبدال من جواب الشرط. والباقون بالواو على العطف على أنذر { ٱلَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} من نوم أو غيره إلى الصلاة منفرداً .

{وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّجِدِينَ} أي ويرى تصرفك في الصلاة بالقيام والركوع والسجود، والقعود مع المصلين جماعة إذ كنت إماماً لهم. ويقال: ويراك منتقلاً في أصلاب المؤمنين، وأرحام المؤمنات، من لدن آدم وحواء إلى عبدالله وآمنة، فجميع أصول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رجالاً ونساء مؤمنون، فلا يدخلهم الشرك ما دام النور المحمدي في الذكر وفي الأنثى. فإذا انتقل منه لمن بعده أمكن أن يعبد غير الله، وآزر ما عبد الأصنام إلا بعد انتقال النور منه لإبراهيم. وأما قبل انتقاله فلم يعبد غير الله {إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} فيسمع ما تقوله، ويعلم ما تنويه وتعمله. {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ}؟ أي أهل أخبركم يا كفار مكة على من تنزل الشياطين؟ أي لمّا قال الكفار. لم لا يجوز أن يقال: إن الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة، وبالشعر على الشعراء؟ فرق الله تعالى بين محمد صلى الله عليه

وسلم وبين الكهنة والشعراء فقال: {تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} أي تنزل الشياطين على كل من اتصف بالكذب الكثير والإثم الكبير؛ وهو مسيلمة الكذاب، وسطيح، وطليحة. {يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ}، وهذه الجملة إما حال من فاعل «تنزل» المستتر أي يصغي الشياطين سمعهم إلى الملائكة ليسترقوا شيئاً، ويلقون الشيء المسموع إلى الكهنة. وإما صفة لكل أفاك أثيم أي يصغي الكهنة سمعهم إلى الشياطين، أو يلقون ما سمعوه منهم إلى عوام الخلق {وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ} فالشياطين يسمعون الكهنة ما لم يسمعوا من الملائكة، كما جاء في الحديث: «الكلمة يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة، والكهنة يفترون على الشياطين ما لم يوحوا إليهم». {وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ} أي الراوون الذين يروون هجاء المسلمين، أي وشعراء الكفار يتكلمون بالكذب؛ منهم عبدالله بن الزبعري، وهبيرة بن أبي وهب، ومسافع بن عبد مناف، وأبو عزة عمرو بن عبد الله، وأمية بن أبي الصلت. وقالوا: نحن نقول مثل ما يقول محمد. وقالوا شعراً، واجتمع إليهم سفهاء قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ويروون عنهم قولهم.

وقرأ نافع بسكون التاء وفتح الباء الموحدة. {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ}؟ أي ألم تعلم أيها المخاطب أن الشعراء يسيرون في طرق مختلفة سير الحائرين من طرق القيل والقال؟ فإنهم قد يمدحون الشيء بعد أن ذموه وبالعكس، وقد يعظمونه بعد أن استحقروه وبالعكس، لأنهم لا يطلبون بشعرهم الصدق {وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ} فإنهم يمدحون الجود ويحثون عليه ولا يفعلونه، ويذمون البخل ويصرون عليه، ويهجون الناس بأدنى شيء صدر منهم، ثم أنهم لا يفعلون الفواحش وذلك يدل على الضلالة {إِلاَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} بالله ورسوله، {وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيراً} فلم يشغلهم الشعر عن ذكر الله، ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله تعالى، والحث على طاعته، وفي الحكمة والموعظة والزهد في الدنيا، والزجر عن الاغترار بزخارفها. {وَٱنتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ} أي فلا يذكرون هجو أحد إلا من يهجوهم من الكفار وذلك رد على هجو الكفار لرسول الله وأصحابه كما قال صلى الله عليه وسلم يوم قريظة لحسان: «اهج المشركين فإن جبريل معك» وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة يمشي بين يديه وهو يقول: خلوا نبي الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهب الخليل

عن خليله فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يـدي رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم، وفي حرم الله تقول شعرا فقال النبي صـلى اللـه عليه وسلم: «خل عنه يا عمر فهي أسرع فيهم مـن نضـح النبـل». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن النبي صلى الله عليه وسـلم قال: «اهجوا قريشاً فإنه أشد عليهم من رشق النبل». وعـن أبـي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: «إن من الشعر لحكمة». وقال الشعبي: كان أبو بكر يقول الشـعر وكان عمر يقول الشعر، وكـان عثمـان يقـول الشـعر، وكـان علـي أشعر من الثلاثة. {وَسَيَعْلَمْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَـبٍ يَنقَلِبُـونَ} أي سيعلم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وهجوا رسول الله وأصـحابه، وبالإعراض عن تدبر هـذه الآيـات أنهـم ينقلبـون كمـال انقلاب، لأن مصيرهم إلى النار، وهو أقبح مصير، ومرجعهـم إلـى العـذاب، وهـو أشر مرجع، فالمنقلب: هو الانتقال إلى ضد ما هو. فيه والمرجع هو العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها، فصار كل مرجع منقلبـاً وليس كل منقلب مرجعاً.

وقرىء «أيَّ منفلت ينفلتون»، أي وسيعلم الظالمون أن ليس لهم وجه من وجوه الانفلات فإنهم يطمعون أن ينفلتـوا مـن عـذاب اللـه تعـالى، و «أي» منصـوب ب «ينقلبـون» ولا يجـوز أن يكـون منصوباً بسيعلم، لأن أسماء الاستفهام لا يعمل فيهـا مـا قبلهـا، لأن الاستفهام معنى، و «ما» معنى آخر فلو عمل فيـه مـا قبلـه لـدخل بعض المعاني في بعض.